اسمُها أمُّ الفضل

(رواية خياليّة من الواقع)

اســــم الكتــــاب: اســــــمها أم الفضــــــــل
التــأليـــــــــــف: وائـــل بـــن عبـــد العزيـــز
نــــوع العمـــــل: روايــــــــــــــــة
إخـــراج فنـــــي: عمـــرو ســـــالم ســـواح
رقـــم الإيــــداع: 2021/ 2827
التـــرقيم الـــدولي: 978-977-835-233-7
الناشــــــــــــر: دار زحمة كتاب للنشر والتوزيع
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر Facebook
Email za7ma-kotab@hotmail.com
Tel 002 01205100596
002 01100662595

اسمُها أمُّ الفضل

(رواية خياليّة من الواقع)

بقلم

وائل بن عبد العزيز

٢٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روحِ أبي

إلى روحِ أمّي

إلى روحِ أخي

إلى أرواح أجدادي

إلى أرواح أقاربي

إلى إخوتي وجميع أفراد أسرتي

إلى جميع أصدقائي

وأوّلاً وآخراً إليك أيُّها القارئ الغالي

شكر خاص

لِمَنْ زرعت الحبّ في قلبي.. أمّ الفضل التي أعدّت لي فنجان قهوتي كلّ صباحٍ ليخطّ قلمي.

ولِمَنْ وهبتني السعادة بتضحيتها، وكانت لي فناراً أستمدّ منه صبري.

مُقَدِّمَة

في آخر الرواية

تنويه

الرواية من وحي خيال واقع كثير من أسر سعيدة

لكنّها نشأت في بيئة وظروف صعبة.

(بداية أحداث هذه الرواية قبل بداية الحرب العالميّة

الأولى وانتهت في عام ٢٠٠٦)

*****

ماتوا شهداء

رغمَ صغر سنٍّ إسماعيلَ أكبر أبناء محمّدٍ فإنّه كان أحدَ القادة البارعين ضدّ نظام الاحتلال الظالم، وقد تدرّب على يد أبيه وجدّه الشهيد على فنون القتال بالسيف والرمح، وعلى الرمي بالرصاص بدقّةٍ عاليةٍ، وعُرِفَ بحنكته وذكائه، وهذا كلُّه جعلَ منه قائداً متميّزاً يضع الخطط الاستراتيجيّة ليعيق حركة العدوّ، سواءٌ في ساحة القتال أم في الهجمات المفاجئة على وطنه. ومع كلّ تلك السمات والقدرات لم يستطع أن يمنع مشيئة القدر عندما أراد لإخوته الخمسة الاستشهادَ رغم صغر سنّهم.

فأخوه عثمانُ الذي لم يتجاوز السابعة عشر من عمره كان يملؤه الشغف والطموح لإنجاح الثورة التي قامت لوقف القهر والاستعباد، وكانت لديه غيرةٌ قويّةٌ على دينه، وحبٌّ جمٌّ لأرضه ووطنه، واتّسمَ بأنّه سريعُ البديهة وسريعُ الحركة لدرجة أنّه لم يستطع أحدٌ من إخوته أو أصدقائه اللّحاقَ به، خصوصاً مجاراته في المبارزة وتسلّق الجبال وإطلاق النار من مسافةٍ بعيدةٍ. لكنّه كان سريعَ الغضب، وهذا ما جعله في بعض الأحيان يرتكب حماقاتٍ من غير قصدٍ، ولا سيَّما تسرّعه

حين رأى أحد أصدقائه يقعُ أرضاً في المعركة، إذْ كانت مهمّتُه هو وإخوته سليمان وداوود وأيّوب وموسى أن يقنصوا العدوّ من بعيدٍ لكي يعيقوا حركة تقدّمه، فلم يتحمّلْ منظرَ سقوط صديقه حمزة، فركض مسرعاً لإنقاذه، ووثب على العدوّ، فأسقطه أرضاً، وطعنه عدّةَ طعناتٍ في صدره حتّى أرداهُ قتيلاً. وفي تلك اللّحظة تخلّى إخوتُه الصغارُ كذلك عن مواقعهم، ونزلوا إلى ساحة القتال، ولكنْ للأسف، لصغر أجسادهم وأعمارهم وخبراتهم في ساحة القتال استشهدوا جميعهم؛ إذ اجتمعَ عليهم جنودُ العدوّ من كلّ حدبٍ وصوبٍ، وراحوا يرمونهم بالرصاص حتّى امتلأت أجسادهم به.

حاول عثمانُ أن ينقذ إخوته، ولكنْ هيهات! سبقَ السيفُ العذلَ. فعند محاولته إنقاذ أصغر إخوته موسى الذي لم يكن قد تجاوزَ أعوامَهُ العشرةَ، تلقّى إحدى عشرة رصاصةً طرحَتْهُ أرضاً، فارتمى جسدُهُ بجوار جثامين إخوته وأصدقائه ومَنْ مات معهم من الشهداء فداءً لوقف قمع دينهم.

في خضمِّ المعركة، وقد حميَ الوطيسُ وعَلا صوتُ البنادق التي كان العدوّ الغاشم أوّلَ مَنْ صنعَها، ظلَّ محمّدٌ وابناه

إسماعيل وعبد الإله يبحثون عن عثمانَ وباقي إخوته عندما لم يجدوهم في مواقع إطلاق النيران عن بعدٍ على الأعداء، فإذا بجثمانِ حمزةَ يتراءى لإسماعيلَ، ومن ثمّ رأى أخاه عثمانَ مضرّجاً بالدماء وقد امتلأ جسده بالرصاص، فأتى إليه مسرعاً وقال له: "اطمئِنَّ؛ سوف أحملك، وسوف تتلقّى العلاج، لا تخفْ يا أخي".

أجاب عثمانُ وعيناهُ تذرفان الدموع: "أخي! سامحني؛ لم أستطعْ تحمّلَ منظر قتل الأعداء لنا فهاجمْتُهم، وقتلْتُ منهم الكثير، وقد كنتُ سبباً في وفاة إخوتي الصغار... أرجوك سامحني".

فقال له: "لا تتحدّثْ يا عثمانُ؛ أرحْ نفسك".

فجأةً أتى محمّدٌ وابنُه عبدُ الإله، فشاهدَا عثمانَ قد أوشك على الفراق، وسمعَاهُ يقول: "أبي؛ سامحني". ولم يستطع أن يكمل الكلام ونطق الشهادة، حينها رأى محمّدٌ جثامين بقيّة أبنائه الصغار فلم يستطع المقاومة، وانهارَ جسدُه بجوار جثامين أبنائه الذين لم ينعموا قطُّ بالحياة.

حلَّ الغروب، وعاد الأعداء إلى مستنقعاتهم بعد أن خسروا هجومهم على الثوّار المناضلين ضدّ الظلم والاستبداد.

وشرع محمّدٌ بمساعدة إسماعيلَ وعبدِ الإله في حمل جثامين أبنائه المقتولين في سبيل الله، عائدين إلى أرض أجدادهم، وأوعزَ إليهم أن يدفنوا إخوتهم مع الشهداء السابقين من أجداده وقومه. وعند وصولهم وجدَ محمّدٌ في استقبالهم رفيقةَ دربه زُهرةَ وأبناءَهُ عبدَ الرحمن وعبدَ الملك وسليماً وأحمدَ وعبدَ الله.

عندما رأَتْ زُهرة جثامين أبنائها الصغار لم تستطع التحرّك، فظلّت واجمةً، واحمرّت عيناها من البكاء... طال صمتها، وزاد أنين قلبها، وتحوّلت حياتها من زراعة وقطف الزهور والورود إلى زراعة بذور الحزن والقهر وقطف أوّل خيبات الأمل.

لم يتحمّلْ أحمدُ الطفل البالغ الثامنة من العمر رؤيةَ جثامين إخوته، وبالأخصّ عثمانَ الذي لطالما كان يُعلِّمُه الرماية والقراءة والكتابة، فمرضَ مرضاً شديداً حتّى وافَتْهُ المنيّةُ، ولحقَ بإخوته الذين لم تمضِ على وفاتهم أيّامٌ معدودةٌ.

سكنَ الألمُ بيتَ محمّدٍ برحيل أبنائه الصغار، لكنْ لم يدمْ طويلاً، فلم تمرَّ عدّةُ أشهرٍ حتّى قامت الحرب العالميّة الأولى، وبسببها عمَّتِ الفوضى في جميع أقطار الأرض.

بعد انتهاء فترة الحرب ساد الاضطراب والتوتّر في أرجاء بلاد محمّدٍ، وكان ذلك السببَ الرئيسيَّ لعودة العدوّ القاتل لاستعمار وطنه والاستيلاء على ثرواته الغنيّة بالبترول والمعادن، خصوصاً الفحم والذهب والملح وغيرها من الخيرات والنعم. لكنّ محمّداً ومَنْ بقيَ من أبنائه وأبناء قومه لم يستسلموا، بل كانوا بواسلَ في الجبهات، ولم يرضخوا للطغيان والمثالب التي يفعلها على أرضهم.

*****

متى ستنتهي الحرب؟

كان ما يُميّز بستان محمّدٍ موقعه على ضفاف نهرٍ يصبُّ في نهر تاريم المعروف، لذلك كانت أرضه خصبةً ومثمرةً. ورغم أنّ محمّداً خُلِقَ ليكون محارباً فقد وجدَ نفسَهُ محبّاً لفنّ الطبخ وللحرث والزراعة، فكان يزرِع الزهور والورود والفاكهة وكذلك أجود أنواع القطن. سافر محمد بذاكرتهِ إلى طفولتهِ، وتذكر كيف وجد نفسه ابن وحيد لأب وأم، قد أهلكوا مِن معاناة ومشقات الحياة مِن حروب ونضال وكِفاح لكي يوفروا الطعام والمأوى لهم ولابنهم الوحيد الذي تربى على نغمات صوت المدافع والبنادق، وأشتم رائحة نسيم البارود والأدخنة، ورأى بأم عينهِ هندسة تدمير المنازل وخرابها، تذكر كيف كان يركض بين البيوت ليس فرحاً كما يفعل باقي الصبيان، وإنما كي لا يسقط بين يدي الأعداء، وكيف أنهُ وبقية الأطفال حملوا السلاح منذُ السادسة من عمرهِم، وكان جُلّ همهم أن تبقى أنفاسِهم داخل صدورهم، وأن لا ترحل باكراً مثل الكثير من أبناء جيلهم، الذين ودعوا الحياة قبل أن يرو ما هي الحياة، لم يتذكر يوماً أنه منذُ أن أقبل للحياة إلى أن بلغ قرابة سن التاسع عشر مِن العمر أن تنعم قط بطعام أو نوم هنيئاً ومطمئناً، كانت حياتهُ بين حفظ القرآن وبين توفير الطعام وحماية والديه مِن رصاصة طائشة أو اعتقال فيهِ مِن التعذيب الذى لا يقوى عليهِ بشر.

وحين شاءت الأقدار بموت أبيه أثناء المقاومة ومعهُ الكثير من أعمامهِ وأفراد قبيلتهِ، حينها تمنى ودعّا الله أن يحل الهدوء والسلام الذي لا يعرف معناه ولم يذقهُ في حياته ولكن كان يسمع عنهُ في دعاء المظلومين والمقهورين، وتمنى أن يشفي لهُ أمهِ التي لم تستطع تحمل الحياة يوماً من غير زوجها فاستسلمت للحزن والقهر، حتى أتى موعد القدر، لتكون رفيقتهِ في نعيم الموت مثلما كانت معهُ في جحيم الحياة. حزن كثيراً على موتِهما، لكن لا مكان للحزن في زمن كلهُ أحزان وفراق وتشيع جثمان، وعندما حلّ الهدوء قليلاً، لم يكن عليه سوى أن يزرع أرض أبيه التي لطالما أرتوت من دماء الأموات، وسقيت مؤخراً بمياه الغيث والأمطار لتنبت وتثمر تعويضاً عن سنين الجفاء والحرمان.

تذكر كيف سمع صوت نبض قلبهِ لأول مرة منذُ أن رأت عيناه النور، حين ذهب لزيارة صديق طفولتهِ ورفيق دربهِ أحمد منذُ حمل البندقية، واللذان لما يجتمعا قط سوى في التحفيظ أو في ساحة القتال، ليرى إن وفق هو كذلك في زراعة بستان أبيه وبدأ في حصاد ثمارهِ، وفي أثناء دخولهِ البستان وهو ممتطى جوادهِ رأى زُهرة.. فرأي الشمس وشعر بدفء أشعتها، ورأي في عينها انعكاس ضوء القمر الذي لم يحن موعدهِ، وطفق قلبهِ بالخفقان معلناً تمردهِ وعصيانهِ لعيشة العزباء.. لعيشة الوحدة تحت سقف لا يحمل سوى أسوء ذكريات، وتمنى حينها أن يعُمّ السلام ليحيا ما

تبقى مِن عمرهِ في رخاء وآمان. لكن للأسف؛ لم يتحقق الرجاء ولم تتحقق الأماني والدعوات، فما أن تنعّم بالزواج ورؤية الأبناء، إلا وقد وجد الزمان يعود للوراء، ليكرر مع أبنائهِ نفس نشأتهِ ونفس مصيرهِ مِن تحمل حياة كلها ألم ومرارة وشجن.

كانت تجارته الرئيسيّة تعتمدُ على زراعة شجرة التوت التي تتغذّى على أوراقها يرقاتُ دودة القزّ، وما ينتجُ منها من حريرٍ، فيستفيد من بيعه، خصوصاً أنّ طريقَ الحرير القديمَ الرابطَ بين قارّة آسيا وقارّة أوروبا كان يمرُّ من أرضه.

جلس إسماعيلُ فوق تلّته المفضّلة التي كان كلّما أراد أن يعيش لحظات الهيام مع رسائل حبيبته أسرار يأتي إليها، فكانت تنوس بحروفها بين عقله وقلبه، وكم كانت تحملُ في طيّاتها من دعاءٍ أن يحفظ الله لها حبيبها وخطيبها الذي رسمت حياتها بين دفّتَي حضنه، وتتوجّس خيفةَ أن يطول غيابه! وكم من توقٍ في فؤادها لتزفَّ إليه وتهنأ بقربه!

وارى قلقَهُ من ألّا تشرقَ شمس آماله، وظلَّ جلّ همّه أن يجد الأمان لكي يحيا به مع حبّ عمره أسرار، لكنْ بسبب مآسي الاحتلال كان لا بدَّ له أن يظلّ مواظباً، كدأبه، على الذهاب مع إخوته وأصدقائه إلى صحراء تكلامكان المعروفة بأنّها المهد الذهبيّ للحضارة الإنسانيّة حينذاك من أجل الصيد والتدرّب والاستعداد للقتال.

أمّا عبدُ الإله فكان شخصاً يحبّ الهدوء والتأمل في النجوم، وكان يسافر بخياله داخل الروايات الروسية التي يقرؤها كلّ مساءٍ، وكان من المعجبين بالروائي الرومانسي بوشكين، والذي بسبب روايتهِ، تعلمّ قليلاً اللغة الروسية مِن أحد أصدقائهِ الذي أتقن اللغة من أمه الروسية، لكي يتسنى لهُ فمهما والتعايش داخلها ومعها. حتّى أمست مُنْيَتُهُ أن يحيا الحبّ والعشق، وأن يستقرّ ويكون له من الأبناء الكثيرُ، لكنّه كان يأسرُ كلّ ذلك في مكنون أفكاره، فالحياة لا تهبُهُ كلّ ما يتمنّاه، وظلَّ يساعد أخاه إسماعيلَ في وضع الخطط العسكريّة لحركة الثورة الوطنيّة المناضلة ضدّ الأعداء الظالمين الذين قتلوا على مرّ التاريخ ما يقارب المليون مسلمٍ من شعبه المسالم.

وكان عبدُ الرحمن وعبدُ الملك وسليمٌ على التوالي في العمر ممّا جعلهم يقضون معظم أوقاتهم مع بعضهم البعض، حتّى غدا طموحهم واحداً أنْ ينتقموا لإخوتهم، فأصبحوا يتواجدون دائماً ضمن السرايا السرّيّة، وذلك لخفّة وسرعة حركتهم وقوّتهم الجسديّة وشجاعتهم. أمّا عبدُ الله فكان معظم وقته ملازماً لأبيه وأمّه لمساعدتهم، وكان حريصاً على تعلّم القراءة والكتابة والتدرّب الدائم على حمل السلاح.

بعد مضيّ قرابة الثلاثة أعوامٍ على انتهاء الحرب العالميّة الأولى شنَّ العدوُّ غارةً هجوميّةً مفاجئةً للقضاء على الثورة التي تكلّلت

بالنجاح لإبادتها، فلطالما كانت مهدّدةً لنظامه وحكمه الفاسد. ودارت معركةٌ ضاريةٌ قُتِلَ فيها الكثير من البشر، وكان من أوائل القتلى عبدُ الإله الذي توغّل داخل صفوف الأعداء وقتل منهم الكثير، ورغم إصاباته البالغة فإنّه استمدّ قوّته من عزيمته ليثأر لإخوته الصغار، واستمرّ في القتال والحورُ العينُ يتراءَيْنَ له ويمدُدْنَ أيديهنَّ له ليحيا ما مُنِّيَتْ به نفسُهُ في جنّة النعيم. ولكنْ للأسف؛ بعد هنيهةٍ من الزمن استشهدَ إخوتُه عبدُ الرحمن وعبدُ الملك وسليمٌ وهم في الصفوف الأولى.

وأُصيبَ محمّدٌ إصابةً خطيرةً كادت تؤدّي إلى وفاته لولا تدخّلُ ابنه الصغير عبد الله الذي أبعدَهُ عن منطقة الخطر، وابنه الكبير إسماعيل الذي تلقّى عنه وابلاً من الرصاص، وجعل من جسده درعاً يحمي أباه وأخاه، وهو ينظر إلى السماء وقد تجلّى له وجهُ حبيبته أسرار، فابتسم لها ابتسامةَ مودِّعٍ.

عادَ محمّدٌ محمولاً على أكتاف ابنه عبد الله مع بقيّة المصابين الأوفياء الذين لم يكونوا أقلَّ تضحيةً منه، لكنّه عاد هذه المرّة ولم يتبقَّ له سوى عبد الله والحزن ومسؤوليّة تشييع جثمان أبطاله الشهداء.

*****

البرد القارس

كان محمّدٌ يخطو خطواته مسرعاً بعد انقضاء صلاة الفجر كي لا تتجمّد أطرافه من صقيع البرد ومن لفحة الرياح المحمّلة بحبّات الثلج، حتّى يصل إلى زُهرة ويجهّز لها طعام الإفطار، فقد كانت تحبّ أن يبدأ صباحها بارتشاف الحليب وأن تحلّي فمها بالزبيب، فهي دائماً تقول: "إنّ الزبيب يقوّي تذكّري لأبنائي". فيبتسم محمّدٌ لقولها وقلبه يعتصرُ ألماً. وبعد أن تشرب الحليب كانت تأخذ قسطاً من النوم لشدّة ما تشعر به من وهن الحمل الذي جعلها طريحةَ الفراش تُقاسي الألمَ الشديدَ، وحينها يجلس محمّدٌ كعادته في فناء منزله ليتأمّل الطبيعة.

كان بيتُهما يقعُ بين سفوح الجبال الشاهقة على أطراف النهر الغامر بمياهه العذبة التي تكاد تتحوّلُ إلى ساحة تزلّجٍ في أوج فصل الشتاء، وكان محمّدٌ يعشقُ التأمّلَ عند تعاقب فصول السنة، خصوصاً الشتاء والربيع، ففي الربيع تكتسي الجبال باللّون الأخضر لكثرة انتشار أشجار الصنوبر طويلة الساق فيها، وغيرها من الأشجار التي تبثُّ في النفس الهدوء والسكون، كما أنّ استنشاقَ عبير أوراق الياسمين المنتشرة على

أطراف النهر يُدخِلُ السرورَ إلى قلب كلّ بشرٍ. وفي الشتاء تتساقط الثلوج كالندف البيضاء لتغطّي كلَّ ما تحتها من طبيعةٍ وجمالٍ، فلا ترى الجبال من السحاب ولا ترى أغصان الأشجار من كثرة الرياح والأمطار، فتنعدم الرؤية تماماً، وتكتفي بالتمعّن من خلف النافذة.

لبثَ محمّدٌ يتبادل أطراف الحديث مع المتبقّي من خرير النهر، فقد كان يخشى أن يمرّ عليه الدهرُ من غير أن يكون له وريثٌ يؤاخي ابنَه عبدَ الله ويواسيه فيما تبقّى له من العمر، وكان جلّ دعائه أن يمنحه الله الصبر فيما ابتلاه.

*****

زهرة ودموع الحرب

زاد الألمُ على زُهرة في أيّامها الأخيرة لدرجة أنّها لم تعد تستطيع النهوض من فراشها، فقد بلغت من العمر ما يزيد على الأربعين عاماً، وقد كان هذا حملها الثالث عشر الذي أتى بعد عناء وصبر سنين طوال، وللأسف لم تعشها في راحةٍ ونعيمٍ مثل غيرها من الفتيات، بل كانت تعيش في جحيم ظلم الاحتلال. لكنّها كانت دائماً مبتسمةً ومتفائلةً، فهي الشمعة التي تحرق نفسها كي تضيءَ منزلَ محمّدٍ حبّاً وشغفاً، وهي الروح التي تبعثُ الأملَ في قلب كلّ مَنْ خسرَ حبيباً أو ولداً له. كان قلبُها معلّقاً بمقبض الباب، تنتظر متى يُفتَح لتستنشق رائحة حبيبها وآخر أبنائها عبد الله، فكلّما طال غيابه كانت تعيش بين الدعاء والرجاء ومرارة الانتظار.

كان محمّدٌ يسافر مع أسوأ الذكريات التي لا تأنف تعاوده كلّما أراد أن ينساها؛ تعاوده وتأبى فراقه، كان يشتاق لأبيه وأعمامه وكلّ أفراد أسرته وقبيلته... هو لا ينسى إصابته برصاصة غدرٍ، ولكن هيهات! ليس هذا ما يؤرق مضجعه؛ إنّما كان مشهد استشهاد عبد الإله وبقيّة أبنائه في الصفوف الأولى من ساحة القتال لا يفارق ذاكرته، أولئك الذين وبكلّ فخرٍ ألقوا

اليمين والقسم أن يكونوا حُماةَ الإسلام والوطن. ولم ينسَ أو يتناسَ أنّه من سلالةٍ دامت أكثر من تسعمائة عامٍ تخوض الحرب دفاعاً عن موروثها القديم والحاضر، فطيلة فترة التسعمائة عامٍ لم يهنأ الأعداءُ بالانتصار، حتّى تكالبوا من الشرق ومن الغرب طمعاً في خيرات أرضهم وفي إبادة وقمع آمالهم وطموحاتِهم.

كانت الدموع تنساب من عينَي محمّدٍ، وهو لا يشعر، كلّما تذكّر كيف خسر قلبه وعضده في تلك المقاومات؛ تذكّر كيف أنقذَهُ ابنُه الأصغرُ عبدُ الله حين حملَهُ على أكتافه والدمُ يسيلُ من كلّ أجزاء جسده، وكيف تلقّى عنه ابنُهُ إسماعيلُ الأكبرُ سيلاً من الرصاص كي يحميه من العدوّ الغادر؛ إسماعيل الذي كان شجاعاً مغواراً، يحمل العبء دوماً وهو دائم الابتسامة، وكلُّ طموحه أن ينعمَ في جنّة الأرض مع حبيبته أسرار، أو أن يستشهد مبتسماً للقاء ربّه.

ظلَّ محمّدٌ يكرّرُ محدّثاً نفسه: "آهِ من حرقة قلبي على ابني إسماعيل الذي لازمني في كلّ حياته! وعلى باقي أبنائي الذين لم يعيشوا كفايةً لينعموا بالحياة!".

كان عبدُ الله يعمل طيلة النهار في مزرعة أبيه ذات المساحة الشاسعة المغطّاة بالمسطّحات الخضراء، وقد كانت تأخذ منه مجهوداً كبيراً بين تحصيل حصاد ثمارها وسقاية الأشجار والورود والاهتمام بها، وبين مقابلة التجّار وبيعهم من منتجاتها، خصوصاً ما ينتجه منها من الحرير الطبيعيّ.

وبعد صلاة المغرب كان يحضر دروس القرآن حتّى يحينَ وقت صلاة العشاء، وبعد أن يقضيها ينطلق لكي يتدرّب مع البقيّة المتبقّية من شجعان الأشاوِس، ليكونوا متحفّزين للحفاظ على إرثهم وأحلامهم وأرضهم.

*****

زُهرة وعبد الله والاحتلال

كان ما يواسي زُهرة في مرقدها ويخفّف عنها آلامها ذكرياتها وأسرار؛ نعمْ ذكرياتها، كانت تتذكّر طفولتها وكيف كانت تلعب في حديقة أبيها وتقطف الأزهار، كانت تعشق لمس الزهور البيضاء لِما فيها من نقاءٍ وصفاءٍ، وزراعة زهور الفاوانيا التي تتميّز بلونها البنفسجيّ، وتُزرَعُ في منتصف فصل الخريف، كما أنّها كانت تعشق ركوب الخيل والاهتمام بها. وعندما بدأت ملامحُ البلوغ بالظهور عليها وأصبحت مثل كلّ الفتيات تحلم بفتى أحلامها، صارت تحلمُ بفارسٍ طويلِ القامة، شجاعٍ، مغوارٍ، وبأن تُرزَقَ بعشرة أبناءٍ لتُحسنَ تربيتهم وتجعلهم فرساناً بأخلاقٍ نبيلةٍ وشجاعةٍ لا مثيلَ لها تجعلهم لا يهابون الموت.

كانت زُهرة تبتسمُ وهي تتذكّر أوّلَ مرّةٍ رأتْ فيها محمّداً وهي في التاسعة من عمرها؛ كان وسيماً، ويمتطي خيلاً أبيضَ، وقد كان صديقَ أخيها الوحيد أحمد. وكانت تضحكُ حين تتذكّر كيف تقدّم للزواج منها وهي في سنّ العاشرة، وكيف أنهُ جعل الخطبة والشبكة والدخلة كلها في شهر واحد فقط، معللٍ ذلك بأنهُ لا يريد إضاعة يوم مِن عمرهِ بعيداً عنها وتستمرُّ في الإبحار

في بحر الذكريات... محمّدٌ كان لها الزوجَ والحبيبَ والصديقَ، وبعد وفاة أبيها وأخيها في الحرب خصوصاً.

تذكّرت عندما حملت بأوّل أبنائها إسماعيل وهي ما زالت فتاة الحادية عشرة، وتذكّرت حبَّهُ المجنون لأسرار التي أشعلت في قلبه نيران العشق والاشتياق، ولكنّه لم يستطع أن يكتفي برؤيتها من بعيدٍ فقط، أو أن يكتفي بكتمان مشاعره بين أوراقه، فأصرَّ على التقدّم لها، وخطبَها كي يخطَّ لها سطورَ الغزل، ويرسم معها لوحةً عنوانُها: "غداً أجمل".

أسرار التي لطالما عاشت تائهةً بين التمنّي والدعاء وبين طول غياب حبيب قلبها، كانت تُمضي ليلَها لا تملُّ ولا تكلُّ وهي تكتب رسائل الشوق، وتعبّر عمّا بداخلها من طموحاتٍ ورغباتٍ تريد أن تحيا بها مع حبيبها وزوجها الموعود، لكنْ للأسف؛ ما كلُّ ما يتمنّاه المرءُ يدركه، فما كادَتْ تستمعُ بلحظات السفر في الخيال حتّى عادَتْ إلى أرض الواقع لتحتضن جثمانَ مَنْ سلبَها قلبها وقد رحل من دون استئذانٍ؛ رحل ليتركها محطّمةً من دون حاضرٍ تحياه ومن دون مستقبلٍ ترجوه. وإذا بعبدِ الله يدخلُ على أمّه فينتشلها من ملاذ

ذكرياتها.. تغزّلَ بها كالمعتاد، ثمّ اقتربَ منها لكي يقبّل يدها ورأسها ويطلب منها الرضا، فهو من تبقّى لها بعد أن خسرت فرسانها الأحد عشر.

كان عبد الله يحبُّ أن يداعب بطن أمّه، وكان دائماً يضع رأسه على حجرها، ويتكلّم مع أخيه وكأنّه يعلم أنّها ستُرزَقُ بولدٍ. قال لها: "أمّي ادعي لي بالاستشهاد، فسوف نشنُّ غارةً على الأعداء، وأتمنّى أن يكون النصر حليفنا".

لم تستطع زُهرة النطق، والدمعةُ تفرُّ من عينيها، وقلبُها يصرخُ بـِ: "لا وألف لا؛ لقد خسرت أبنائي وأنت من تبقّى لي". ولكنْ هيهات! كيف تمنعُه وهي من ربَّتْ فيه روح الشجاعة والفداء؟ وجعلتْهُ فارساً مدافعاً عن دينه وتاريخ أمجاد أجداده؟

ابتسم عبد الله، وقبّلَ يدها، ونظر إلى عينيها، وأطال النظر كأنّه يعلم أنّه لن يراها مرّةً أخرى، فقد كان قلبه مشتّتاً حزيناً، فهو يعلم بمرض أمّه ومعاناتها من جرّاء فقدانها إخوته، ويدركُ كبرَ سنّ أبيه الذي يُكِنُّ في داخله كلَّ أنواع الألم. وكان أمرُ رحيله أكثرَ ما يُثْقِلُ كاهلَه، فمَنْ سيرعاهما من بعده؟ قطعَ

والدُهُ حبل أفكاره، وقال له: "ارحلْ يا بنيَّ؛ لِيكن الله معكم وينصركم، ولا تخشَ شيئاً فإنّ الله معنا".

مرّت أيّامٌ وأسابيعُ وزُهرة تنظر إلى الباب، وقد مرَّ على حملها أكثر من ستّة أشهرٍ. فجأةً شعرت بضيقٍ وغصّةٍ في قلبها وارتعبت خوفاً، حينها رأت الباب يُفتَحُ ببطءٍ، ومحمّدٌ يدخلُ منه وعيناه مغرورقتان بالدموع.

ساد الصمت طويلاً، وبلغت القلوب الحناجر.

*****

وصيّة زُهرة

مضى أكثر من شهرين والصمتُ يُخيّم على منزل محمّدٍ، ولا يقاطعه سوى صوت المطر والرعد والرياح، وساد الظلام وأبى أن يفارق المكان، وكان يُزاحم سوادَ اللّيل وهجُ البرق معبّراً عن غضبه من غدر الزمان.

جلس محمّدٌ على طرف الأريكة يتأمّلُ ملامح رفيقة دربه، وسرحَ بخياله.. تذكّرَ كيف كان يتسارع نبض قلبه عندما رآها أوّل مرّةٍ وهي تقطف الأزهار في حديقة أبيها، قد لفتَهُ جمالها وطول شعرها الذي يصلُ إلى آخر قدمَيها، وشدَّه بياض بشرتها واحمرار وجنتيها وحَوَر عينيها الساحرتين، وبالرغم من أنّها كانت صغيرةً جدّاً، فقد كانت دائمةَ الابتسامة، شديدةَ الحياء، سريعةَ البديهة، تتّسمُ بالفطنة والذكاء، وكان فارقُ العمر بينهما كبيراً لكنّه لم يأبهْ به.

لا يعلم أَكان بسبب المشاعر التي اجتاحت كيانه بلا مقدّماتٍ، أم بسبب حكمتها وهدوئها اللّذَينِ لا يوحيان بعمرها الصغير، فقد كانت زُهرة بالنسبة له كالقنديل الذي أضاءَ حياته في أثناء رهبة الاحتلال، كانت الزهرةَ الوحيدةَ التي يفوح عبيرها في أرجاء مزرعته، كانت نسمةَ الأمل الباقية في زمنٍ امتلأ باليأس. وكلّما تذكّر كيف كان يدعها تسبقه في سباق الخيل كان يبتسم، فقد كانت ضحكتُها مصدرَ سعادته الملهمة، كيف لا وهي من جعلت قلبه ينبض؟

جعلت بيته داراً ومقرّاً للسعادة والفرح؟ كيف لا وهي من أنجبت له أبناءه وأحسنت تربيتهم؟

كان يبتسم دائماً من عبارتها؛ "أنا أمٌّ لفرسانٍ تهتزُّ لصداهم أركان الجبال". كان حلمها أن ترى أحفادها يملؤون المزرعة، وكانت تحيكُ ثوبَ الزفاف لكي تقدّمه هديّةً لأسرار، الفتاة التي اختارها قلب ابنها إسماعيل قرّة عينهما لكي تكون شريكة حياته. لكنّها للأسف؛ لم تنعم بهذه الأمنية، فأصبحت خاوية المشاعر، وأصبحت عيناها عينَين ساجيتَين لا تريانِ سوى ما يراهُ ضريرُ البصر، فموتُ أبنائها أذبلها، وحطّم فؤادها، وقتل جميع آمالها، حتّى غزا الشيب شعرها بالرغم من صغر سنّها.

ذات يومٍ كان محمّدٌ يتأمّل زُهرة، وإذا بها فتحت عينها، وهمست بصوتها الخافت الناعم:

- محمّدُ حبيبي؛ ما زلت هنا؟

- نعم يا حبيبتي، وهل من مكانٍ أفضل من الجلوس بجوارك وتأمّل جمالك؟

ابتسمت زُهرة ابتسامةً علاها عناء السنين، وقالت:

- يا محمّدُ؛ سامحْني وادعُ لي؛ إنّني أشعر أنّ جسدي سيرحل، ولكنْ ثِقْ بأنّ روحي وقلبي سيمكثان معك.

- زُهرةُ؛ أرجوك لا داعي لهذا الكلام، فأنا لا أقوى على فراقك، فأنت الحياة.

- حبيبي محمّد؛ أرجوك لا تحزن، فأنت من وهبَني الابتهاج، أنت من جعلَني أحيا كلّ يومٍ والبسمة تملأ وجهي، أنت من علّمَني كيف أتذوّق طعم الحياة، أنت من كبرتُ على يده، أنت من جعلَ منّي أجملَ امرأةٍ وأنثى وأمٍّ.

- حبيبتي؛ أرجوك لا تجهدي نفسك وارتاحي... إنْ شاءَ الله عمّا قريبٍ سنُرزَقُ بمولودٍ، وستكونين له أروعَ أمٍّ، وستعلّمينه فن الكتابة وركوب الخيل.

- يا حبيبي وزوجي؛ أرجوك اسمعْني، وأرجوك حقّقْ لي آخر أمنيةٍ؛ أنت تعلم كم كنت مشتاقةً لأداء العمرة، وكم كان حلم حياتي أن أعيش وأدفن بجوار سيّد البشريّة صلّى الله عليه وسلّم... أرجوك يا محمّدُ ارحلْ من هنا، وخذْ طفلنا واجعله يعيش حياته في سلامٍ وأمانٍ. سمِّهِ أحمدَ أسوةً بأخيه الذي مات قهراً على إخوته، سمِّهِ أحمدَ لأنّه من خيرة الأسماء، واجعلْهُ يتعلّم القرآن في رحاب بيت الله، ودعْهُ يدعو لي عند روضة حبيبي رسول الله.

قال محمّدٌ وعيناه امتلأتا بالدّموع: "لا تقولي ذلك حبيبتي، سوف نذهب جميعاً لأداء العمرة، وسوف تزورين حبيبنا رسول الله".

أغمضت زُهرة عينيها، وغطّت في سباتٍ عميقٍ من تعب الحمل. ثمّ أتت أسرارُ مستأذنةً المكوثَ بجوار والدة حبيبها لكي تشمّ رائحته فيها، وتراه في عينيها، وتسمع صوته في حديثها وهي تروي لها قصّة مجده وبطولاته. أتت لتكون عنوان الوفاء حتّى بعد رحيله، وتساعدها في عنائها وتلبّي احتياجاتها.

فجأةً دوّى صراخٌ في كلّ أرجاء المنزل؛ "يا محمّدُ؛ أنجدْني سألدُ... يا محمّدُ؛ أرجوك، فَلْتأتِ بأمّ أحمد... أرجوك".

تجمّدت أسرار في مكانها؛ لا تعلم ماذا تفعل! فأمسكت بيدها والخوف سكن قلبها محاولةً أن تهدّئ من ألمها. وذهب محمّدٌ مسرعاً إلى بيت جاره أبي أحمد ليستدعي أمّ أحمد، فهي من أشرفت على ولادة جميع أبنائه.

جلس محمّدٌ في ردهة منزله، وقد طال انتظاره كأنّ ساعة الدهر توقّفت، وكان صوت آهات زوجته ورفيقة دربه يدوّي في أذنيه كالرصاص، بل كان الرصاصُ أرحمَ عندما مزّقَ جسده. كان قلبه

يخفق بشدّةٍ، وإحساس الخوف والرعب قد تملّكه، فهو في أضعف حالاته رغم قوّته وشجاعته في ساحات القتال.

وقف مكتوف الأيدي أمام آلام حبيبته، وما كان له سوى الدعاء، فرفع يديه إلى السماء يدعو... إنّ خسارته لأبنائه قد دمّرته، وأثقلت كاهله، وأصبح الوهن في قلبه ولسانه وعظامه.

عمَّ الهدوءُ في الأرجاء، وكاد قلبُ محمّدٍ يقفُ، وإذا بأمّ أحمدَ قادمةٌ إليه وفي يدها طفلٌ، وقد كسا وجهَها الحزنُ، وامتلأت عيناها بالدموع. فسارعَ محمّدٌ بسؤالها قائلاً: "طَمْئِنيني يا أمَّ أحمدَ؟ كيف حالُ زُهرةَ؟ إنْ شاءَ الله هي بخيرٍ؟".

لم تقوَ أمُّ أحمدَ على الكلام، فقد كانت الدموع تنهمر من عينيها، والحزن اعتلى وجهها، ومرارة الألم أشجت صوتها. ثمّ نطقت بصعوبةٍ: "إنّا لله، وإنّا إليه لراجعون".

*****

معاناة الرحيل

"أحمد.. أحمد؛ لا تركضْ بسرعةٍ، وعُدْ إلى القافلة".

جلس محمّدٌ على طرف صخرةٍ يستظلُّ بظلّ شجرةٍ ليرتاح قليلاً من تعب السفر، فقد كانت الطرق وعرةً غيرَ معبّدةٍ، كما كان على الحافلات أن تقف بعد حينٍ لكي يرتاح السائقون والركّاب من طول فترة الجلوس لمسافاتٍ طويلةٍ، حيث كانت مقاعد الباصات حينها قاسيةً وغيرَ مريحةٍ.

كان يتفقّدُ سيفه المخبّأ داخل ملابسه، المقرّب إلى قلبه الذي ورثه عن جدّه، والذي بفضله أصبح من أفضل المبارزين بالسيوف. كانت رحلتهم إلى إسطنبول طويلةَ المسافة والزمن، وكانت مليئةً بالأهوال والمجازفات لكثرة قطّاع الطرق، وذلك لتواجد أهمّ خطّ نقلٍ لتجارة الحرير.

تأمّل محمّدٌ ابنَهُ الذي أصبح وريثَهُ الوحيدَ وكلَّ مَنْ تبقّى له في هذه الدنيا، وهو مَنْ أوصَتْهُ به حبيبة قلبه في آخر أيّامها، وقد اختارت اسمَهُ.

"آهِ يا زُهرة! كم اشتقتُ إليكِ!".

عاد محمّدٌ بشريط ذكرياته إلى الوراء فدمعت عيناه، واعتصر الألمُ قلبَهُ إذْ تذكّرَ يومَ فراق زُهرة، فقد كان فراقها

الضربةَ التي قصمت ظهره، وأماتت قلبه، والأسوأ من ذلك أنّ اليأسَ تملّكَهُ.

تذكّر كيف وجد بين يديه طفلاً ينوح باكياً، لا يعلم أكان يبكي لاحتياجه الحليبَ أم لفقدانه أمَّه! وتذكّر كيف انهارت أسرار خطيبة ابنه الراحل، وظلّت تبكي، وتنوح، وتردّد: "لا ترحلي يا خالتي؛ أنتِ من تبقّى لي لأحيا ذكرى حبيبي".

كاد محمّدٌ أن يستسلم لليأس، لكنْ من رحمة الله عليه أنْ رزقَهُ أحمدَ في وقتٍ أصبحت فيه الحياة بالنسبة له لا شيء، لا واقع، لا مشاعر، لا وجود.. فمَنْ كانت تُسعده في الدنيا، وتُشعره أنّه أعظمُ رجلٍ في الحياة، ومَنْ جعلته أباً للفرسان الشهداء، رحلَتْ.. وللأسف أخذت معها كلَّ ما يملكه من عزّةٍ وشموخٍ وكبرياء، أخذت معها قلبه وأحاسيسه ومشاعره، أخذت روحه التي كانت تنبض باسمها، حتّى حلمه رحلَ برحيلها.

عاش محمّدٌ قرابة السنتين في عزلةٍ تامّةٍ، وكانت حياته بين مزرعته وبين تربية ابنه الوحيد الذي أتى إلى الحياة يتيماً محروماً من عطف الأمومة ومن إحساس الأخوّة، ليس له

سوى أبيه وأسرار التي ما زالت تأتي كلّ يومٍ لترعاه، وتُعدَّ الطعام له ولأبيه.

كان محمّدٌ في حالة يأسٍ ووهنٍ وعجزٍ ممّا أصابه من فراق الأحبّة، ولكنْ كان عليه أن يستجمع قواه ليلبّي وصيّة حبيبته التي فارقت الحياة بلا استئذانٍ، فبدأ في الاستعداد للرحيل، وكم كان هذا القرارُ صعباً عليه! كيف يترك منزله الذي عاش فيه كلّ ذكرياته؟ كيف يرحل بعد كلّ هذا النضال والكفاح وبعد كلّ هذه الخسارة؟ كيف يرحل ويترك أرضه وتاريخه وقلبه؟

بدأت القافلة بالتحرّك، وقد كانت وجهةُ محمّدٍ إلى مكّةَ، لكنْ كان يجب عليه أن يرافق قافلةً تجاريّةً تحمل البضائع، فقد كانت بلاده غنيّةً ومعروفةً بتجارة النحاس والفضّة وبأفخر أنواع الحرير.

لم يعلم محمّدٌ أنّ إسطنبول مدينةٌ جميلةٌ، أجواؤها رائعةٌ وضبابيّةٌ في فترة الصباح خصوصاً، وصوتُ الأذان فيها يعلو سماء المدينة ويملأ كلّ مكانٍ. بُهِرَ محمّدٌ عندما زار جامع أيّوب سلطان الذي بُنِيَ بعد فتح القسطنطينيّة بخمسة أعوامٍ، وهو

أوّلُ مسجدٍ بناه المسلمون في إسطنبول بعد الفتح، ويضمُّ قبرَ الصحابيّ أبي أيّوب الأنصاريّ (رضوان الله عليه).

واستمتع هو وابنه أحمد عندما زارا المعالم السياحيّة الأخرى، ومنها آيا صوفيا وقصر الباب العالي الذي اتُّخِذَ مقرّاً للحكم العثمانيّ لفترةٍ امتدّت أربعمائة سنةٍ، كما فرحَ أحمدُ وهو يأكل الحلويّات في منطقة تقسيم المعروفة في وسط المدينة.

وُفِّقَ محمّدٌ في بيع الحرير، فقد كانت بضائعه من أجود الأنواع، وساعده في ذلك ابنُ عمّه عبد الله الذي يعيش في إسطنبول منذ فترةٍ طويلةٍ من الزمن.

حاول عبد الله مراراً وتكراراً أن يُقنعَ محمّداً بالاستقرار، وأن يقضيَ ما تبقّى له من عمرٍ في إسطنبول، خصوصاً أنّ الشعبَ التركيَّ كان في حالة سعادةٍ ورضاً تامٍّ بسبب تأسيس الدولة التركيّة حينها على يد القائد مصطفى أتاتورك الذي هزمَ الجيش اليونانيّ، وأخرجه من الأراضي التركيّة، وجعل البلاد تعيش في استقرارٍ وأمانٍ. لكنّ محمّداً أبى ذلك وبشدّةٍ، فثمّةَ وصيّةٌ على عاتقه، وأيّة وصيّةٍ؟ وصيّة حبيبة قلبه.

*****

روحانيّة أداء العُمْرة

بدأ محمّدٌ بترتيب أغراضه استعداداً لأداء العُمرة، وكان يخشى أن ينسى شيئاً من مستلزمات السفر، إذْ كان في السفر الكثيرُ من المشقّات والمخاطر بين الدول وقد كانت تثيرُ الرعبَ في قلوب المسافرين، فالرحلةُ طويلةُ المسافة تمرُّ بدولة سوريةِ التي كانت غيرَ مستقرّةٍ بسبب الاستعمار الفرنسيّ رغم أنّها أعلنت استقلالها في عام ألفٍ وتسعمائةٍ وعشرين، لكنّ فرنسا لم تعترف بهذا الاستقلال. ثمّ تمرُّ بدولة الأردن وقد كانت إجراءاتُ التنقّل بينهما صعبةً ومعقّدةً، ومن ثمّ تدخلُ في أرجاء الجزيرة العربيّة الحارّة التي لم تكن بها خدماتٌ كثيرةٌ.

وكان أكثر ما يحمل همَّهُ ابنه أحمد الطفل الذي لم يتمَّ الأربع سنواتٍ من عمره، فهو يحتاج إلى طعامٍ وإلى راحةٍ، إذْ لم ينعم بها إلّا قليلاً في أثناء المكوث في إسطنبول. لكنّ اللّهفةَ لأداء العمرة وزيارة حبيبنا رسول الله هوّنَتْ عليه من المعاناة والمشقّة الشيءَ الكثيرَ.

وقف أحمدُ يتأمّل الكعبة لوقتٍ طويلٍ، وكان قلبه ينبض بشدّةٍ، ولم يكن يعلم لماذا. بكى محمّدٌ كثيراً في أثناء الطواف

حتّى امتلأت لحيته البيضاء الطويلة بالدموع، وكان جلّ دعائه لحبيبته التي تركته وبقيت روحُها بلا جسدٍ، فكم كان يتمنّى لو أنّها كانت معه!

بعد الانتهاء من أداء العمرة جلس محمّدٌ وأحمدُ لأخذ قسطٍ من الراحة، فقد كان الجوُّ شديدَ الحرِّ من وهج أشعّة الشمس ممّا جعلهما يشعران بالعناء والعطش والجوع، لكنّ التأمّلَ في بيت الله أذهبَ عنهما كلّ تعبٍ وظَمَأ.

فجأةً سمع محمّدٌ رجلاً يناديه، وإذا به إبراهيمُ أحدُ أقدم أصدقاء طفولته الذي لم يرَهُ منذ زمنٍ طويلٍ جدّاً. وبعد التحيّة والسلام الصادق قال إبراهيم:

- ما هذه الصدفة الجميلة يا محمّدُ؟ منذ متى أنتَ في مكّةَ؟

- أهلاً، أهلاً يا صديقي إبراهيم.. في الحقيقة وصلنا مكّةَ قبل ساعاتٍ، لكنّنا لم نستطع النوم من اللّهفة لأداء فريضة العمرة.

- تقبّل الله منكما، ما شاء الله! مَنْ هذا الطفل الوسيم؟

- إنّه آخرُ مَنْ تبقّى لي من أبنائي ووريثي الوحيد من زوجتي رحمها الله.

صُدِمَ إبراهيمُ بالإجابة، فصمتَ احتراماً للموقف المؤثّر، ثمّ قال: "أسألُ اللهَ الرحمةَ لهم جميعاً". ومن ثمَّ دعا محمّداً وابنَه إلى وليمة العشاء في منزله.

لبّى محمّدٌ دعوته، وذهب مع ابنه إلى منزله، وفي أثناء اللّقاء سأله إبراهيم:

- هل أتيت إلى مكّة لأداء العمرة فقط، أم لديك خططٌ مستقبليّةٌ يا محمّد؟

- في الحقيقة، يا إبراهيمُ، إنّني أتيت لأداء العمرة، ولكي أحقّق وصيّة ورغبة زوجتي بأن أستقرّ في المدينة المنوّرة؛ رغبةً وحبّاً في جيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

- ما شاء الله يا محمّد! خيرُ قرارٍ؛ أتمنّى لك التوفيق فيما ترجوه. لكنْ دعنا نذهب في رحلةٍ إلى مدينة الطائف لكي نزور أصدقاءنا القدامى، ولكي ترتاح من عناء السفر الطويل الذي استغرقت فيه عدّة أشهرٍ، فمعظمهم يعيشون حاليّاً هناك.

أنت تعلم أنّ الطائفَ مدينةٌ جميلةٌ، وتمتاز بأجوائها الباردة، فهي مدينةٌ مرتفعةٌ فوق الجبال.

- إنْ شاءَ الله يا صديقي إبراهيم، ولكنْ دعْنا نستمتع هذه الأيّام بروحانيّة الكعبة والصلاة فيها، فزيارةُ مكّةَ حلمُ كلّ إنسان يعتنق الديانة الإسلامية.

*****

الطائفُ وأجواؤها الرائعة

جلس أحمدُ يلعب مع صابرٍ بنِ العمّ إبراهيمَ في منزلهم في مدينة الطائف، بينما كان محمّدٌ يحادثُ إبراهيمَ قائلاً:

– يا إبراهيمُ؛ إنّ منزلك جميلٌ ما شاء الله! وفعلاً صدقتَ؛ إنّ مدينة الطائف جميلةٌ، والأجواء بها تميل إلى البرودة.

– نعمْ يا محمّدُ؛ حتّى إنّها تشتهر ببرودتها شتاءً واعتدال مناخها صيفاً، يقصدها السيّاحُ من كلّ أنحاء العالم، خصوصاً مواطني دول الخليج. وتشتهر بثمارها كالبرشومي (التين الشوكيّ)، والتوت، والرمّان... ومن أجمل مناطقها مرتفعات الهدا والشفا التي تشتهر بالعسل والسمن وغيرها.

– هل أنت سعيدٌ بالعيش في الطائف، يا إبراهيم؟

– نعمْ يا محمّدُ، والحمدُ لله، فالأجواءُ الجميلة تهدّئُ أعصابي، ونمطُ الحياة الاجتماعيّة له رونقٌ خاصٌّ، والسائدُ فيه الترابطُ الاجتماعيُّ بين الأفراد والأسر داخل الأحياء. كذلك انتشار البساتين المنتجة للفواكه والورود، خصوصاً الورد الطائفيّ الشهير، وتمركزها حول وادي وِج المعروف بمياهه العذبة. كما أنّ القصور القديمة في المدينة تلفت أعين السيّاح، مثل قصر شبرا، وقصر الكعكي، والكاتب، وغيرها من القصور

والمتاحف. أضِفْ إلى ذلك قربها من مدينة مكّة سهّلَ عليَّ الأمرَ لأداء العمرة وقتما أشاء.

توافدَ الضيوفُ إلى منزل إبراهيمَ مُرحّبين بمحمّدٍ؛ منهم مَنْ كان يعرفهُ ولكنْ لم يقابله منذ زمنٍ طويلٍ، ومنهم مَنْ لم يكن يعرفه.

بعد الأحاديث الشيّقة وتناول وجبة العشاء قال محمّدٌ لإبراهيمَ:

- شكراً يا إبراهيمُ؛ كان يوماً جميلاً، لقد أسعدْتَني أنا وابني، وقد سُرِرْتُ برؤية أصدقائنا وضيوفك الكرام.

- لا داعي للشكر يا محمّدُ، فأنت صديقي، وكنت جاري، ولك في القلب أجملُ الذكريات.. لكنْ لماذا لا تشتري بيتاً في الطائف وتستقرّ هنا؟

- في الحقيقة لقد أعجبتني أجواءُ الطائف وحدائقُها، ولكنْ أنت تعلم أنّ هدفي أن أعيش وأدفن في المدينة.

- أطال الله في عمرك يا محمّد، لكنْ لن يضرّك شيءٌ إن استقرّيتَ هنا لفترةٍ حتّى تألفَ أجواءَ بلاد الحجاز، وتتعرّف

على عادات وتقاليد شعبها أكثر.. دعْني أجد لك منزلاً بعد إذنك، ومن ثمّ سافر إلى المدينة وقتما تشاء.

وفعلاً استطاع إبراهيمُ إقناعَ محمّدٍ، فاشترى محمّدٌ منزلاً من ثلاثة طوابق، يمتاز بمساحته الكبيرة وكثرة نوافذه التي تسمح بمرور أشعّة الشمس من كلّ اتّجاهٍ لتدفّئ المنزل، وكان أكثر ما يميّزه إطلالته، حيث كان مُطِلّاً على حديقةٍ مليئةٍ بالورود والزهور البيضاء والحمراء والصفراء وغيرها من الألوان الكثيرة التي تدخل السرور والفرح في قلب كلّ مَنْ يراها.

كان محمّدٌ محارباً ومزارعاً وخبيراً في مجال الحرير والقطن والسجّاد، وكان يهوى فنَّ الطبخ ويجيده. وقد لاحظَ أنّ المطاعمَ في الطائف لم تكن كثيرةً في ذلك الوقت، وليس ثمّة تنوّعٌ في أصناف الطعام، فبدأ مشروعه بالطبخ بمساعدة ابنه أحمد.

استمرَّ محمّدٌ بالعمل في الطائف في مجال المطاعم وتجارة السجّاد لمدّةٍ تفوق السنتين، وبدأ فعلاً يألفُ المكان والسكّان، فكان يوجد اختلاطٌ ودمجٌ بين العوائل وبين بعض القبائل التي نزحت من القرى المجاورة، فبعضهم أتى من مكانٍ بعيدٍ بحجّة

طبيعة العمل، أو بسبب حبّه للطبيعة الخلّابة التي تتميّز بها مدينةُ الورد على مدار السنة. وقد كانت الألفةُ ومحبّةُ الجيران ظاهرةً على الملأ، وبخاصّةٍ في المناسبات.

حاول إبراهيمُ إقناعَ محمّدٍ بالزواج وتكوين أسرةٍ لكي يستقرّ في الطائف، فهو في حاجةٍ لوجود امرأةٍ تملأ حياته، وترعى ابنه أحمد، وتنجب له العديد من الأبناء، لكنّ محمّداً كان يرفض وباستمرارٍ.

نعمْ؛ إنّ نساءَ الطائف كُنَّ يَرتديْنَ العباءة السوداء، ولا يُظهِرْنَ من مفاتنهنَّ أيَّ شيءٍ ملفتٍ سوى أعينهنَّ من خلف النقاب. وكُنَّ يعرفْنَ الجمال والأدب واحترام الزوج.

وكان موقعُ مطعم محمّدٍ داخل الأسواق الشعبيّة القديمة، وهذا ما جعل له سمعةً، فاشتهرَ بلذّة طعامه، وكان الزبائنُ يتوافدون عليه من مختلف الجنسيّات، وكانت من بينهم أمُّ عبد الله الأرملةُ التي ترمّلت وهي صبيّةٌ، وعاشت فقط لتربية ابنها، وكانت تتردّد بشكلٍ يوميٍّ لتشتري من طعام محمّدٍ، خصوصاً طبق الأرزّ البخاريّ باللّحم الممتلئ بالجزر والزبيب، وكذلك المنتو. وعندما علم محمّدٌ أنّها أرملةٌ ووحيدةٌ صار

دائماً يصرُّ عليها كي تحصل على الطعام مجّاناً، لكنّها كانت ترفض وتشكره على لطفه وحسن تعامله.

طفقَ يشعرُ بميلٍ تجاه أمِّ عبد الله، وأُعجِبَ بحيائها وانخفاض صوتها عندما لمحَ عينيها الفاتنتين خصوصاً. وبدأ يستشعرُ كلام صديقه إبراهيم حول ضرورة ارتباطه بامرأةٍ يكمل معها حياته، ويعيش الحبّ معها، ويرعاها، وترعاه هو وابنه أحمد الذي لم ينطقْ يوماً كلمةَ أمّي، ولم ينادِ بها طوال السنوات الصعاب الماضية، ولم يسمعْ كلمة ولدي، ولم يُنادَ بابني.

ولكنْ كان شيءٌ بداخله يصرخ بأعلى صوتٍ: "لا، فقلبك لم ينسَ حبيبتك، ولن يسمح لأحدٍ أن يسكن به سواها، فهي أوّلُ نبضٍ وآخرُ نبضٍ، ولن ينضب عشقها إلى الأبد، وستظلّ تراودك في أحلامك حتّى آخر يومٍ في عمرك، وستكون عروسَ منامك كلّ ليلةٍ، ولكنْ ليس هنا في الطائف بل في المدينة التي لطالما حلمْتُما أن تعيشا فيها".

كان محمّدٌ في كلّ ليلةٍ يحلم بالمدينة المنوّرة وأسوارها، فقرّر بعد تفكيرٍ عميقٍ الانتقال إليها، وساعد في دعم ذلك

القرار إلحاحُ ابنه بعد أن أخبره بوصيّة أمّه بأن يكمل ما تبقّى له من عمرٍ بجوار الحبيب المصطفى.

وعاد محمّدٌ مرّةً أخرى إلى الاستعداد للهجرة الأخيرة، الهجرة إلى طيبة الطيّبة وهو ينشد: "طلعَ البدرُ علينا من ثنيّات الوداع."...

*****

عشق المدينة الأبديّ

وقفَ محمّدٌ وابنُهُ أحمدُ يتأمّلان سور المدينة وفي أطراف أعينهما الدموعُ، كان قلبُ محمّدٍ ينبضُ بقوّةٍ حتّى يكاد صوتُه يُسمَعُ من شدّة نبضهِ، فحبُّ المدينة شيءٌ لا يوصفُ ولا يعقلُ للبعيد قبل القريب، وكان حلم كلّ مسلمٍ أن يقضي حياته إلى آخر يومٍ من عمره في المدينة داخل أسوارها الشاهقة وبساتينها الخلّابة، يستمتع بروحانيّة العبادة في الروضة الشريفة.

فمن مظاهر جمال المدينة أنّها محاطةٌ بسورٍ عالي الارتفاع يبلغُ قرابةَ خمسةٍ وعشرين متراً، ولها عدّةُ أبوابٍ، اشتهر منها أربعة أبوابٍ رئيسيّة، فمن الجهة الشرقية بابُ البقيع حيث ينفذ إلى بقيع الغرقد الذي دفن فيه العديد من الصحابة الذين نالوا شرفَ صحبة الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) وهم أحياءٌ، ونالوا فضلَ جيرته وهم أمواتٌ، ومن الجهة الشماليّة باب الشاميّ، ومن الجهة الغربيّة باب المصريّ، وثمّةَ أيضاً عدّةُ أبوابٍ منها بابُ المجيدي نسبةً إلى السلطان عبد المجيد الذي فتح هذا الباب في السور المحاط بالمدينة، وكان هذا السور لحماية المدينة وأهلها. وفي داخلها الأسواق الجميلة،

ومنها سوق العينية، وسوق الحبابة، وغيرها من الأسواق التي تلبّي جميع حوائج سكّانها والزوّار.

وكانت المدينة وما زالت تُعرَفُ بأهلها الطيّبين الذين دعا لهم رسول الله محمّدٌ (ص). وهم يتّسمون بالكرم وحسن الضيافة والترحيب وبشاشة الوجه، وأبرز ما يميّزهم الترابط الأسريّ والتراحم بين عوائلهم وإخوتهم بالودّ أو بالرضاعة. ولهم في فنون الطبخ ما يشتهيه كلُّ سكّان الأرض، خاصّةً الأرزّ المدينيّ والكابليّ والبخاريّ، كما عُرِفَتِ المدينةُ بالعجوة، فأفضلُ أنواع التمور فيها، وكذلك زراعة النعناع، فمعظمُ أهلها يستمتعون بتذوّق نكهته مع الشاي.

والغريب أنّ أهلها وزوّارها يلتمسون بركةَ الحياة فيها، وقد قيل إنّ البركةَ تنزل من السماء تجوب الأرض للساعين بحثاً عنها في رزقهم، ومن ثمّ تستقرّ في أودية المدينة. للمدينة روحانيّةٌ لا يعلمها، أو يشعر بها، أحدٌ غير قاطنيها وزوّراها، فسبحانَ مَنْ جعلَها وجهةً دينيّةً لدى معظم سكّان العالم؛ يأتونها فقط لزيارة حبيبنا رسول الله واستشعار الراحة النفسيّة التي من النادر أن تجدها في أيّ مكانٍ.

قال محمّدٌ لابنه:

- يا أحمدُ؛ لو حدّثْتُك عن فضائل المدينة وروعتها وجمالها وعن أصالة شعبها، لفاضَ بي العمرُ، ولم أُوفِها قدرها!

- أبي؛ شكراً لأنّك أتيت بي إلى المدينة، فعندما رأيت سور المدينة تذكّرت أمّي التي لم أرَها، ولم أتحدّث معها، لكنّي أحسست بأنّها تمسكُ يدي بشدّةٍ! حقّاً يا أبي؛ لقد شعرت أنّ روحَ أمّي تطيرُ من حولي وتعانقُني.

طالَ الصمتُ بينهما، إذْ سافرَ كلٌّ منهما بخياله؛ محمّدٌ مع حبيبته ورفيقة دربه، أخذَتْه السنون التي جمعتهما بما تحملُ من مواقفَ ومشاعرَ وذكرياتٍ، وأحمدُ مع أمّه التي تركت له وصيّةً أن يواظب على الصلاة، وأن يدعو لها في سجوده بين حنايا الروضة الشريفة. ورغم سعادتهما وهما يمشيان بين مزارع المدينة ويستنشقان عبيرها الفواح، فإنّ مشاعرهما سكنَها وجعُ خسارة الحبيبة والأمّ، فتجرّعت نيرانَ لهيب فراقها، وأمست في شَجوٍ من عدم رؤيتها ثانيةً.

قطعَ محمّدٌ حبالَ الخيال والصمت قائلاً:

- ما رأيك، يا أحمدُ، أن نذهب إلى صديق عمّك إبراهيم، لنبحث لنا عن منزلٍ نرتاح فيه من عناء السفر؟

- أبي؛ أتوسّل إليك؛ أريد أن أذهب إلى المسجد النبوي، أريد أن أصلّي في الروضة، أريد أن أنفّذ وصيّة مَنْ أنجبتني وتركتني وحيداً محبّاً لها... أريد أن أدعو لِمَنْ كنتُ لها حلماً وتمنّيتها لي واقعاً أحيا بها ومعها.

*****

الاستقرار بالمدينة

ومرض أبي

استقرَّ محمّدٌ وابنُهُ في منزلهما أخيراً بعد عناء رحلة سفرٍ شاقّةٍ وطويلةٍ، كان فيها من المواقف والتجارب الشيء الكثير. وبدأ محمّدٌ بمزاولة نشاطه التجاريّ الذي قد بدأ به في مدينة الطائف، تجارة السجّاد وممارسة هوايته المفضّلة فنّ الطبخ.

ومن حسن حظّه أنّ منزله ومطعمه يقعان بالقرب من الحرم النبويّ، ممّا جعله هو وابنه أحمد يؤدّيان كلّ الفرائض فيها. وكان أكثر ما يسعد أحمد ذهابه إلى الحرم ليصلّي في الروضة الشريفة، ويدعو لأمّه التي أحبّها، وكان يتوقُ لها، وكم تمنّى أن يملأ عينيه منها، أو يداعب خصال شعرها، أو حتّى يهمس في أُذنها! أحبَّها فقط ممّا سمعه من قصصٍ كان أبوه يرويها له كلّ يومٍ قبل نومه منذ نعومة أظافره حتّى بلغ سنّ العاشرة.

كان يتخيّلُ شكلها وجمالها، وكانت الروايات التي كان أبيه يرويها لهُ، هي كلُّ ما يملكه أحمد من رصيدٍ في ذكرياته عن عائلته التي للأسف لم يتبقَّ منها سوى الأسى على فراقهم، والفخر لنيل إخوته وأفراد قبيلته الشهادة، ليجعلوا راية دينهم مرفوعةً.

عاد للوراء بذاكرتهِ لكي يتذكر يوم رأت عيناه ضوء الشموع لأول مرة، يوم سمع فيهِ صوت صريخهِ مِن ألم التنفس بعد إقبالهِ للدنيا، حين خرج مِن بطن أمهِ متوجاً بتاج ملوك الأرض الذين ولِدو بدون مُلك وبدون صولجان يتخذهُ رمزاً يتفاخر بهِ بين إخوتهِ، لكنه لم يستطع، فقد خانتهُ ذاكرتهُ، وبدأ حينها يستذكر ملامح أسرار التي كانت بِمثابة الأم والأخت والصديقة، والتي لطالما لعبت معهُ وكان يركض بعيداً عنها مسرعاً يجلجلُ ضاحكاً كي لا تستطيع اللحاق بهِ، لتنال منهُ ثم تسقطه أرضاً مدغدغةً بطنهِ معلنتاً انتصارها عليه، وعلمتهُ قطف الزهور ووردة دوار الشمس، علمتهُ كيف يعد أوراق الشجر المتساقط، وكيف يجلب الإناء ليجمع بهِ زخات المطر المتساقط، وكيف يتذوق طعم الثلج عندما يسقط مِن عنان السماء ومِن بعدها يقذفها بهِ، وتذكر كيف كانت تعِدَ لهُ الحليب الساخن، ومِن ثمّ ترُكِبهُ أمامها على جواد إسماعيل، حبيبها الفارس الراحل، كانت تشتم رائحة شعرهِ لتغدو في ذكرياتها الخاصة، والتي لا يُخفى منها مشاعرها الحزينةُ، تذكر كيف كان يلعب مع أصدقائهِ الأطفال بالعصا وكأنها سيوف، فقد كان أبيه يجعله يلمس سيفهِ وكان يكرر دوماً لابد وأن

تكون شجاعاً مثل إخوتك، ولابد أن تتعلم الرمي وركوب الخيل، فقد كان حريصاً على أن يستمد قوتهِ مِن إيمانهِ بقدراتهِ وأن لا يسمح للظروف التي نشأ بها أن تكسره، ولا ينسى عندما وبخهُ أبيه حين ضرب صديقهِ بصخرةٍ أدت إلى شج رأسهِ عندما قال لهُ بأنك بِلا أم ترعاك، وشدد عليه عدم أذية الغير واحترام الأخرين وأن يتعلم الصفح والعفو عند المقدرة، تذكر حين أذن موعد الرحيل كيف أنّ والده تمنى مِن أسرار أن ترافقهم وأن تصطحب معها أمِها المسنة والمريضة، ولكنها أبت أن تترك الأرض التي دُفن فيها من سلبها كل مشاعرها، فهي على موعد غرامي معهُ كل يوم لتزورهُ لتشرق روحها بذكرياتهم ولتدعي لهُ بأن يكون قبرهُ روضة مِن رياض الطيبين الذين ضحوا بروحِهم مِن أجل أن تحيا روح غيرِهم. سافر بخياله في وعورة الطرق وفي تفحصهِ لوجوه الغرباء الذين كانوا معه في نفس رحلتهِ، وكيف حلّ في بلاد الترك الخضراء التي بِها مِن النِعم وخصوصاً آيسكريم البوظة، وكيف أمتلكهُ الخوف عند عبوره أكثر مِن بِلاد ومدن مِنها الباردة بديعة المنظر ومِنها شديدة الحرارة قاحلة الأرض، حتي بلغ مبتغاهم ورأي بأم عينهِ الكعبة المكسية بِغطاء أسود مخمل وتفوح مِنها رائحة ذكية،

وكيف أنهُ وبدون أي تمهيد أختفي منهُ كل مشاعر التعب والإرهاق والخوف، وظلّ فقط يراقب نبض قلبهِ عند رؤية الكعبة، تبسم حين تذكر أجواء الطائف الرائعة والتي ذكرتهُ بأجواء مسقط رأسهِ، وتعلت الابتسامة وجههِ حين تذكر صابر والذي لعب معه بكل شغف وكيف أنهما تبادلا أحاديث رحلتهِ، وضحك على نفسهِ عندما تذكر أول يوم صاحب أبيه للمطعم وطلب منهُ أن يقطع البصل والطماطم والجزر، وما كان منهُ سوى أن أغرقهم بدمائهِ حين جرح أصبعهِ مِن غير وعي، وكيف كان لا يعلم مقدار الملح الذي يجب وضعهُ على الطعام، حتى رأي أبيه يشرب من الماء الكثير فقط ليخفف ملوحة مذاق الملح في فمهِ، ولم ينسى إلحاحهِ على أبيه بالسفر للمدينة المرجوة، مدينة أحلام أمهِ التي لطالما تمنت أن تقضي ما تبقى مِن عمرها بين أرجائها، لكن للأسف جعلت أمانيها وصية بأن يحيا ابنها في مدينة أحلامها لينعمّ بما كانت ترجوه لنفسِها. وحين بلغ أسوار المدينة ومشى بين بساتينها وأعتلى روابيها وشرب مِن مياه أبارها العذبة وقطف مِن ثِمار نخلِها حينها اختلجت مشاعرهِ بين الدفء والسعادة، وعندما سمع

صوت الأذان يعلو في كل مكان ينشدُ حي على الفلاح، شعر بدق نبض قلبهِ وتمنى كل الأماني، رِفقة أمهِ.

لكن للأسف، رحيلَ أمّه جعلَ شخصيّتَه، السائد مِنها تميلُ إلى الوحدة أكثر مِن الاختلاط، والنضج مبكّراً قبل أن يحين الأوان بكثيرٍ. تعلّمَ أحمدُ من أبيه كلّ شيءٍ في الحياة، فأبوه بالنسبة له الحياةُ، أبوه الذي ضحّى بكلّ شيءٍ لأجل أن يجعله يحيا في استقرارٍ وسعادةٍ وأمانٍ. ومن الأشياء التي تعلّمها منه كذلك الكتابة، وفنّ الطبخ، وممارسة التجارة في مجال المفروشات. وورثَ عنه حبَّ الخير، وإطعامَ المساكين، وملازمةَ الصلاة في أوقاتها.

كان محمّدٌ يوقظ ابنَهُ كلّ يومٍ قبل أذان صلاة الفجر بساعةٍ لكي يتسنّى لهما الوضوء والاستعداد للذهاب مشياً إلى الحرم النبويّ، ومن ثمّ الذهاب إلى المطعم ليكونا في أتمِّ الاستعداد لاستقبال الطلبات.

فجأةً استيقظَ أحمدُ من نومه على صوتٍ خفيٍّ يناديه، نظرَ حوله فلم يجد أحداً، فاستغرب هذا؛ لأوّل مرّةٍ لا يوقظُهُ والده للصلاة. فذهب إليه، وشرع يوقظه قائلاً:

- أبي، أبي.. استيقظْ.

- أحمد! ماذا؟ هل أنت بخيرٍ؟

- نعمْ يا أبي، ولكنّك لم توقِظْني للصلاة مثل كلّ يومٍ! هل أنت بخيرٍ؟

- نعمْ يا بنيّ، دعْنا نستعدّ للصلاة.

لكنّ محمّداً لم يستطع النهوض من الفراش، ووجد حرارةَ جسمه مرتفعةً، فحاول النهوض مراراً وتكراراً، لكنّه لم يستطع.

- أبي؛ هل أنت بخيرٍ؟ لماذا أرى جسدك يرتجفُ وجبينك يتفصّدُ عرقاً؟ هل أنت مريضٌ؟ هل تعاني من شيءٍ ما؟

- لا أعلمُ يا بنيّ! لا أستطيع الحركة! أَمِنَ الممكن أن تحضرَ لي قليلاً من الماء؟

فهمَّ أحمدُ مسرعاً لجلب الماء ودقّاتُ قلبه تنبضُ بقوّةٍ، وطمرَ بداخله الخوفَ والقلقَ على أبيه الذي ليس له سواه في هذه الدنيا.

*****

آهِ منك يا أبي

- يا دكتور؛ كيف صحّةُ أبي؟

- لا أعلمُ ماذا أقول لك يا بنيّ! أَليس لديك أعمامٌ، أو أمٌّ، أو إخوةٌ أكبرُ منك؟

- لا يا دكتور؛ ليس لي في الحياة سوى أبي، فأرجوك طَمْئِنّي عليه، ولا تخشَ شيئاً، فالحياةُ قد جعلت منّي رجلاً، وسوف أُدرِكُ وأَعي ما ستقوله.

- في الحقيقة، يا بنيّ، إنّ أباك رجلٌ كبيرٌ وطاعنٌ في السنّ، ويحتاج إلى رعايةٍ كاملةٍ وراحةٍ تامّةٍ. دقّاتُ قلبه غيرُ منتظمةٍ وضعيفةٌ، فأرجو أن نستطيع نقله إلى المستشفى في أقرب وقتٍ ممكنٍ.

أومأَ أحمدُ برأسه متفهّماً، وقال: "إنْ شاء الله يا دكتور، وشكراً لك".

عاد أحمدُ إلى أبيه لكي يساعده في الاستعداد للذهاب إلى المستشفى، لكنّه وجدَ أباه قد توسّدَ الوسادة ونامَ، فمكثَ إلى جواره يتأمّله.

لأوّل مرّةٍ بدا له أنّ ملامحَ أبيه قد كبرت فجأةً، وأنّ علاماتِ تقدّم العمر لاحت في كلّ أجزاء وجهه، وقد ظهرت خطوطُ قسوة الدهر والتعب والإرهاق، أمّا جسده فقد آلَ هزيلاً ليس كما اعتاد رؤيته.

أطالَ أحمدُ التأمّلَ في أبيه وفي عينيه دموعٌ ترقرقت من الشقاء والخوف واليأس. تجهّمَ من حاله، ولبثَ بمكانه؛ لا يعلم إلى أين سيسوقه القدر!

تذكّرَ في طفولته كيف كان أبوه يلعب معه، وكيف كان يرعاه، وكيف كان يعدُّ له الطعام، ويُلبِسُه أفضل الثياب... تذكّرَ كيف كان يمسكُ بيده ليعبر به الطرقات، وكيف علّمَه أوّلَ مرّةٍ الوضوء والصلاة، وكيف كان يهجّئ معه القرآن... تذكّرَ كيف تحمّلَ معاناة السفر والرحيل والهجران، وكيف نأى عن وطنه فقط ليلبّيَ وصيّةَ رفيقة دربه وحبيبته. تذكّرَ شدّةَ الحزن في عيني أبيه عندما يتذكّرُ الماضي ومرارة الحرمان...كان يعلم أنّ جلّ همِّ أبيه وتعبه وتفكيره أن يصل بابنه إلى برّ الأمان؛ "آهِ منك أبي!".

خاطبهُ قائلاً:

- أبي، أبي.. استيقظْ بعد إذنك.

- ماذا يا بنيّ؟ ولماذا أنت خائفٌ ولونُ وجهك شاحبٌ ومختلفٌ؟ ماذا قال الدكتور؟

تلعثمَ أحمدُ، ولم يعرف بماذا يجيب أباه، فهو ما زال ابن العاشرة من العمر.

- لم يقلْ شيئاً يا أبي، سوى أنّنا يجب أن نذهب إلى المستشفى لكي نطمئنَّ عليك أكثر.

- لا داعي يا بنيّ.. ساعدْني في الوقوف لكي أصلّي، فنذهب إلى العمل.

- أرجوك، يا أبي، فَلْتَسترح اليوم، وأنا سوف أذهب وأفعل كلّ شيءٍ. ولا تقلق، فأنت علّمتني أن أكون رجلاً يتحمّل المسؤوليّة، علّمتني أن أواجه المصاعب، وأن أكون إنساناً بلا أنانيّة.

- سامِحْني يا بنيّ؛ قد أرهقْتُك معي اليوم.

- لا يا أبتِ، أطالَ اللهُ في عمرك ووهبَك الصحّة والعافية، وإنْ شاء الله عمّا قريبٍ ستكون بأتمِّ العافية.

ذهب أحمدُ إلى المطعم ليجهّز طلبات الطعام، وكانت هذه أوّلَ مرّةٍ له في حياته يذهب إلى المطعم لوحده. وكان يتساءل هل فعلاً سيكون على قدر المسؤوليّة كما قال لأبيه أم إنّه سيفشل؟ تملّكه خوفٌ من المجهول القادم، فهو من بدء طفولته تحت جناح أبيه وعطفه وحمايته.

نفضَ أحمدُ عن نفسه جميع مخاوفه، وبدأ العمل ومعه مساعدُ أبيه، وظلّا يعملان حتّى وقتٍ متأخّرٍ، فقد كانت لديهما طلباتٌ كثيرةٌ، نظراً للإقبال الكبير على مأكولاتهم الشهيّة المميّزة.

وبعد الانتهاء من عمل يومٍ شاقٍّ دامَ لساعاتٍ طويلةٍ عاد أحمدُ إلى بيته مسرعاً، لكي يتناول وجبة العشاء مع أبيه، ويقصّ عليه ما أنجزه من أعمالٍ في المطعم، ولكي يسمع منه كالمعتاد قصّةً من قصص الحبّ والتضحية والسعادة التي كانت تجمع أباه وأمّه.

لكنْ، عندما وصل وجدَ أباه لا يتحرّك ولا يتكلّم، فبدأ ينادي بأعلى صوته: "أبي.. أبي.. أبي".

*****

أرجوك لا يا أبي

لم يستمتع أحمدُ بطفولته مثل باقي الأطفال، فقد جاء إلى الحياة في أصعب الأوقات، في وقت فراق الأحبّة، في وقتٍ كان وطنه ودينه ينزفان من غدر الأعداء؛ لا أمانَ ولا استقرارَ؛ ثمّةَ الخوفُ فقط من مستقبلٍ مجهولٍ.

قد أقبل إلى الحياة في الوقت الذي أذنت الحياة لنفسها بالرحيل رغم محاولات أبيه اليائسة، إذْ كان يحاول، ويجاهد، ويرهق نفسه ليلَ نهارَ لكي يسعد ابنه، ولا يشعره بالهمّ والانهزام ومرارة الأيّام... لكنْ هيهات! كان أحمدُ يشعر بآلام أبيه وما يطمره من حزنٍ، وكانت كلُّ نظرة شجنٍ في عيني أبيه أشبهَ بطعنة سكّينٍ تمزّقُ داخله وأحاسيسه وعواطفه.

وفي الوقت الذي كان يلعب فيه الأطفال أمام المطعم، كان أحمدُ يساعد أباه في أعماله اليوميّة الشاقّة، وفي المساء يجلسُ وحيداً؛ يتحدّثُ مع صورة أمّه وعيناه محمرّتان من كثرة البكاء.

- أبي، أبي، أبي...

فتحَ محمّدٌ عينيه ببطءٍ شديدٍ، وقد احمرَّ وجهه وابتلَّ بالعرق، وبالكاد التقطَ أنفاسه.

- بنيّ أحمد! لقد عدت؛ الحمدُ لله.

- أبي؛ أرجوك دعْنا نذهب إلى المستشفى حالاً، أرجوك يا أبي!

- أحمدُ يا ولدي؛ لا داعي لأن نذهب إلى أيّ مكانٍ، أنت تعلمُ أنّي أحبّك، وأنّك الشخصُ الوحيدُ الذي لأجله أحيا... يا بنيّ؛ إنّي أشعرُ أنّ وقتَ صعود روحي إلى أمّك قد حانَ، فقد طالَ غيابُها، ولم أعُدْ أقوى على فراقها.

أرجوك يا ولدي؛ لا تحزن، ولا تيأس، وحافظْ على صلواتك ودعائك لي ولأمّك... يا ولدي؛ سامحْني إنْ حمّلْتُك المسؤوليّةَ وأنت ما زلت صبياً؛ سامحْني إنْ تركْتُك وحيداً بلا سندٍ؛ سامحْني إنْ قصّرْتُ معك؛ سامحْ.. سا... أشهدُ أنْ لا إله إلّا الله، وأشهدُ أنَّ محمّداً عبده ورسوله.

- أبي! لا.. أرجوك لا! أبي، أبي...

طال الصمت، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب أقصى الحناجر. انفجر بركان الألم، ودوّى الصراخ في كلّ أعضاء الجسد، وسالت الدموع أنُهراً لتروي عطش الغضب. ماتت الفرحة، وطُعِنَ الأمل، وبات نزيفُ الحزن يدفقُ إلى الأبد،

وبدأت نهايةُ قصّة شابٍّ لم يرتشف سوى المرارة وقساوة الدهر.

عِشْتُ يتيمَ الأمِّ يا أبي!
والآن أصبحْتُ بلا قلبٍ كان منك يرتوي
أذنتُ لساعة الرحيل أن تنقضي
ليتك لم تفارقني كما وعدتني
سأحيا ما تبقّى لي من العمر حتّى تأتي ساعتي
وحينها أدعو أن تكون أوّلَ مَنْ ألقاهُ في جنّتي.

*****

الوحدة وسجن الذكريات

لا أبَ، لا أمَّ، لا إخوةَ، لا أقاربَ، لا أصدقاءَ... عمري عشرُ سنواتٍ، وأحيا وحيداً بين جدرانٍ لا تواسيني، وُجِدَتْ فقط لتحميني من عجاج الأتربة والغبار. أحيا بين جمال الذكريات وبين مرارة الواقع وما فيه من الخذلان. كيف سأتنفّس الهواء وفي القبور أجسادُ العظماء؟ من سيحضنني وقت البكاء؟ من سيطعمني وقت الغداء؟ من سيرعاني إذا ما احتجتُ الدواء؟ من سيحميني من الغدر والمكر والدهاء؟ للأسف.. من سيعلّمني كيف أحيا الحياة؟ ومن؟ ومن؟ لا أعلم ماذا تعني كلمة "عائلة"! ولا أعلم إن كنت سأعرفها! لا أعلم إن كان القدر قد شاء أن أكون وحيداً من التعساء! وأن أظلّ في قائمة الغرباء!

احتجبَ أحمدُ في غرفته، وصار سجينَ ظلامها لأيّامٍ؛ لا يرى سوى اليأس والخوف. لكنْ، إلى متى سيظلُّ حزيناً ومكسوراً كالجريح الذي أصيب من قبل أن تبدأ المعركة؟ وأيّة معركةٍ؟ معركة الحياة!

تذكّرَ وصيّةَ أبيه وأمّه له بالصلاة وألّا ينساهما وقت الدعاء، تذكّرَ أنّه من دماءٍ لم تُخلَقْ للراحة والنعيم، إنّما للكفاح والنضال؛ حينها سمعَ صوتَ الحقّ، صوتَ الأذان، فاستجمع كلَّ قواه، وقام يتحدّى ذلَّ الانهزام والانكسار، واستعدّ ليلبّي النداء، فقد عقدَ النيّةَ على الانتصار رغم كلّ مخزيات الحياة.

كان أحمدُ مرتبكاً وهو يعبرُ الأزقّة والطرقات، ولم يشعر بطول المسافات، ولا بالأبنية ورواشينها، ولا بالبساتين ورياحينها! كان جلّ ما يشغل ذهنه كيف يصل إلى المسجد النبويّ وحيداً، وكان الخوف يلجُ قلبَه متسلّلاً كلّما قلّتِ المسافة إلى الروضة الشريفة، فذلك المكان الذي تمنّت أمّه أن تزوره، وكم كانت تحلم أن تدفن في بقيع الغرقد بجوار حبيبها! لعلّها تكون من أوّل الذين ينالون شرف شفاعة الحبيب المصطفى. وذلك المكان الذي عانى أبوه الهجرة والرحيل كي يصلّي فيه، تاركاً خلفه جمال الطبيعة الخلّابة والأجواء الممطرة التي تجلب للنفس السرور والسعادة، تاركاً خلفه الجاه والتاريخ المليء بالأمجاد، تاركاً خلفه سلالةً عريقةً، تاركاً خلفه أجساداً سالت دماؤها في سبيل الله، تاركاً قلبه الذي يحيا على ذكراه.

لا ينسى أحمدُ كيف انسابت الدموعُ من عيني أبيه عندما سجدَ في الروضة الشريفة، حتّى إنّه ظنَّ أنّ أباه فارقَ الحياةَ من طول السجود.

"أبي، آهِ يا أبي! أين أنت؟ رحلْتَ وأنا في أمسّ الحاجة إلى مسكة يدك لتَعبُرَ بي أصعب الطرقات، وتُلهِمَني وقت الحيرة والشدائد والأزمات".

ظلَّ أحمدُ يمشي مسرعاً بجوار المزارع، مستنشقاً عبيرَ أشجارها وزهورها، وقلبُه وعقلُه في عالمٍ آخر، إلى أن وصل إلى باب الحرم النبويّ قبل وقت الإقامة، وقفَ مُتسمِّراً وعيناهُ امتلأتا بالدموع، فالآن لم يَعُدْ له سوى الرحمن.

انقضت الصلاة، وقد صلّى ركعتين في الروضة الشريفة، وفي أثناء سجوده انبعثَ أنينٌ وصرخةُ ألمٍ من أعماق قلبه، صرخةُ حزنٍ، صرخةُ يأسٍ، صرخةُ خوفٍ... كادَ يفقدُ بصرَهُ من كثرة البكاء، حتّى صار لا يشعر بأطراف أنامله من طول السجود؛ تساءلَ: "لِمَ أنا؟ ولِمَ كلُّ هذه القسوة والجفاء؟ لِمَنْ ألتجئُ يا الله؟ ولِمَنْ أشكو مظلمتي؟ لِمَنْ أعودُ؟ ولِمَنْ أذهبُ؟ ولِمَنْ أحيا يا الله؟! ربّي؛ ارحمْني، وألهِمْني الصبرَ على ما أنا فيه من ابتلاءٍ".

*****

عِراك الحياة

رغم ظروف الحياة الصعبة وكثرة الأعمال الشاقّة فيها، فقد كان لروحانيّة المدينة تأثيرٌ كبيرٌ على نفس سكّانها؛ حيث تجدُ الابتسامة الدائمة على الوجوه وكلمات الترحيب أينما ذهبت، وغير هذا وذاك قوّة الترابط فيما بين الناس، وكذلك حبّ وحسن التعامل مع الجيران. كان أبناءُ الحارة بمثابة إخوةٍ، تجدهم في الشدّة قبل الرخاء، وفي الحزن قبل الفرح. وفي تلك الأيّام ملأت السعادة والفرح شوارع المدينة، فتسمع الأغاني والأناشيد في كلّ مكانٍ بسبب توحيد المملكة على يد مؤسّسها الملك عبد العزيز الذي عُرِفَ بالعدل والإنصاف والشجاعة، والذي كان يقيمُ للمدينة أهميّةً، ويُكِنُّ لسكّانها حبّاً واحتراماً، ممّا جعلهم يشعرون بالودّ والحبّ والأمان.

ومرّتِ السنون، وظلَّ أحمدُ ينفقُ كلّ وقته في العمل، ويُمضي حياتَهُ في الصلاة في الحرم النبويّ، وفي مطعمه الذي ورثه عن أبيه، وبين جدران منزله وأوراق ذكرياته التي مُلِئَتْ صفحاتُها بالاستياء والأسى.

وقد أوسعَ الله عليه من فضله، وهذا ما ساعده قليلاً في أن يتجاوز محنته، إذ انشغلَ بكثرة الطلبات، حتّى أصبح معروفاً في المدينة بلذّة مذاق طبخه، ومَنَّ اللهُ عليه بفتح أكثر من فرعٍ رغمَ صغر سنّه. وقد نال تقدير واحترام وإعجاب جيرانه،

خصوصاً كبار السنّ، لما فيه من تفانٍ في العمل وحسن الخلق والكرم ومواظبة الصلاة، وهو ما زال ابن الثّالثة عشر من عمره.

لا ينسى أحمدُ موقفَ العمِّ عبد الرحمن عندما كان يزوره في المطعم لكي يشتري من طعامه، ويجلس لديه قليلاً ليطمئنّ عنه، فالعمُّ عبد الرحمن كان مشهوراً بطيبة قلبه، وكان محبوباً لدى الناس. ولا ينسى كيف كان الشبابُ الذين هم في مثل سنّه، ويتقاضون مصروفهم من عوائلهم، يضطهدونه ويستهزئون به، وكان العمُّ عبد الرحمن يستنكر تصرّفاتهم، ويقول لهم: "ليتكم مثل أحمد في حسن خلقه وتحمّله المسؤوليّة، بدلاً من العبث واللّعب في الطرقات وأذيّة الناس".

في أحد الأيّام قال العمُّ عبد الرحمن لأحمدَ:

- والله، يا ولدي، لو كانت لديّ بنتٌ لكنتُ زوّجْتُك إيّاها، فأنت خيرُ وأشرفُ نسبٍ. لكنْ، دعْني أبحث لك عن زوجةٍ تواسي وحدتك.

- شكراً يا عمّ عبد الرحمن، وهذا شرفٌ لي، وشهادةٌ أعتزُّ بها، فأنت بسؤالك وعطفك وطيبتك بمثابة أبي رحمه الله، لكنّني لا أفكّر في الارتباط والزواج يا عمّي.

- لماذا يا بنيّ؟ إنّ الزواجَ سترٌ وعفّةٌ، وسوف تفرحُ عندما تجدُ أبناءك من حولك يلعبون، ويكونون لك عزوةً في المستقبل.

- لا أعلم ماذا أقول لك يا عمّ عبد الرحمن! والله إنّ سعادةَ الحياة ماتتْ لديّ منذ خسارتي لأبي، وفي الحقيقة المسألةُ محرجةٌ بالنسبة إليّ، فأنا بلا أبٍ، ولا أمٍّ، ولا عائلةٍ... فكيف سأذهب وأتقدّم لأيّة أسرةٍ؟ وأنت تعرف عادات وتقاليد أُسَرِ المدينة؛ يجب أن يكون لك أهلٌ وأقاربُ وعزوةٌ، وأنا يا عمّ عبد الرحمن قد استُشهِدَ كلُّ مَنْ في عائلتي في سبيل الله، وأمّي ماتت حزناً على فراق أبنائها. حتّى أبي؛ رغم مرضه الخطير عانى الكثير حتّى يحقّق رغبة أمّي، ولم يُخبرْني بسرّ مرضه حتّى توفّاه الله... هل تعلم، يا عمّ عبد الرحمن، أنّني أذهب كلّ يومٍ بعد صلاة العصر لأزور قبر أبي معاتباً إيّاه لأنّه لم يُعلِمْني بمرضه الذي أخبرَني به الطبيبُ أيّامَ العزاء؟ وألومُ نفسي، وأحنقُ عليها كثيراً لأنّني لم أتنبهْ لمرضه وتعبه ووهن جسمه. لكنْ هذا أبي؛ سعادتي بالنسبة له أهمُّ من صحّته.

- رحمَ الله أباك يا ولدي، قد كان نِعْمَ الأب والجار.

*****

اسمُها أمُّ الفضل

اعتادَ أحمدُ أن يُعِدَّ طعاماً خاصّاً كلَّ يومٍ لفقراء الحيّ، وكان عندما ينتهي من صلاة العشاء يذهب بنفسه لكي يقدّمَ لهم طعام العشاء، وأحياناً طعام الغداء؛ يذهب إلى كلّ منزلٍ من منازل الفقراء، فكانت سعادته الحقيقيّة في أن يتناول معهم وجبة العشاء من حينٍ لآخرَ، فيفرح عندما يرى أيديهم تُرفَعُ إلى السماء للدعاء له ولأبيه الذي زرع فيه حبَّ المساكين.

وفي يومٍ من الأيّام وجدَ العمَّ محمّداً ومعه صبيّتان على غير العادة، حيث كان العمُّ محمّدٌ يأتي كلّ يوم جمعةٍ إلى بيوت المحتاجين ليوزّع عليهم الصدقات. فوقف أحمدُ بعيداً استحياءً حتّى ينتهي العمُّ محمّدٌ من توزيع الصدقات ويرحل، فيأتي هو بالطعام كالمعتاد.

لمحَهُ العمُّ محمّدٌ، فناداهُ قائلاً: "أحمدُ يا ولدي؛ تعالَ.. لماذا تقف بعيداً؟".

اقتربَ أحمدُ وقال له:

- أهلاً عمّي محمّد.. سامحْني؛ لم أكُنْ أُريد أن أضايقَك، أحببْتُ أن تنتهي، جزاكَ الله خيراً، من أعمالك الخيريّة.

- أحمدُ؛ أنت مثالٌ مُشرِّفٌ! ليت جميعَ شبّابنا يحذون حذوك.

- شكراً يا عمّ محمّد؛ هذا لطفٌ منك.

- لكنْ، ماذا تفعل هنا يا أحمد؟

تلعثمَ أحمدُ، ولم يعرف بماذا يجيب العمَّ محمّداً، وهو ليس معتاداً على الكذب، وفي نفس الوقت لا يريد أن يخبرَهُ سرَّهُ الذي لا يعلم به سوى الله، فالتزمَ الصمتَ.

فقال له العمُّ محمّدٌ: "على العموم يا ولدي؛ انتبهْ لنفسك، وأراك غداً في درس تحفيظ القرآن".

ردَّ أحمدُ قائلاً: "إنْ شاءَ الله يا عمّي؛ ستجدُني أوّلَ الحاضرين".

وفي أثناء مغادرة العمِّ محمّدٍ سمع إحدى الصبيّتين تقول لأبيها: "أبي؛ لماذا لا نعطيه من الصدقات؟".

فأجابها أبوها مبتسماً: "لا يا ابنتي؛ إنّه هنا لكي يُطعِمَ المساكين، وهو ليس من الفقراء والمحتاجين". ثمّ رحلوا.

ورغم أنّ أحمدَ استفزَّهُ كلامُ الصبيّة التي لم يتجاوز عمرُها الاثني عشر عاماً، فإنّ شيئاً في داخله تحرّكَ وبدأ ينبض، ولم يستطع أن يتناول وجبة العشاء مع الفقراء والمساكين، فاعتذر وعاد إلى مطعمه مسرعاً، فدقّاتُ قلبه لم تهدأْ، وأنفاسُه أبَتْ أن تخشع.

لم يفهم، ولم يستوعب، ولم يدرك! فهو بالأمس فقط بلغَ سنَّ الرابعة عشر، وهو الذي لم ينبضْ قلبُه قبل ذلك إلّا خوفاً وحزناً.

عاد إلى منزله بعد أن انتهى من عمله الشاقّ، واستعدَّ كالمعتاد للنوم، لكي يتسنّى له الاستيقاظ مبكراً قبل صلاة الفجر. ولكنْ هيهات! فصوتُ تلك الصبيّة ما زال يرنو في أُذنيه.

أكمل ليله يتقلّبُ فوق سريره؛ لا يعلم ما الذي يجري معه! لماذا لا يستطيع النوم كالعادة بعد عناء العمل؟ ظلَّ تائهَ المشاعر حتّى بلغَ منتصف اللّيل.

كانت تلك اللّيلةُ طويلةً جدّاً عليه، ولم يأتِ آخرُها، فالنجومُ لم تظهرْ بعدُ من خلف السحاب، والقمرُ داهمَتْهُ مشيئةُ القدر، وهواجسُ اللّيل لم تحجبْها سدول الظلام.

انتهى أحمدُ من صلاة الفجر، وجلس كدأبه إلى وقت الشروق؛ يدعو لِمَنْ امتلكا قلبَهُ رغم رحيلِهما وتَرْكِهما إيّاهُ وحيداً. وعندما عاد إلى منزله لم يقوَ على مقاومة النوم، وسافر مع الأحلام.

استيقظ على غير العادة متأخّراً عن صلاة الظهر، وبالكاد التحقَ بالصلاة.. ثمّ وصل إلى المطعم، وبدأ عمله اليوميَّ.

فجأةً، ومع توافد الزبائن لأخذ الطلبات، وجدَ العمَّ محمّداً ومعه الصبيّتان، وسمعَهُ ينادي: "ماذا تريدين اليوم على الغداء يا أمَّ الفضل؟".

نظر أحمدُ إلى أمِّ الفضل، وقال محدّثاً نفسه: "اسمُها أمُّ الفضل".

*****

أمُّ الفضل ودقّاتُ القلب

ظلَّ أحمدُ مواظباً على الذهاب كلّ يومٍ إلى الكُتّاب (مرحلة تعليميّة قديمة وتُعرف اليوم بالمدرسة)، وكذلك على حضور دروس الفقه والقرآن بعد صلاة العصر في الحرم النبويّ. وكان يحاول ألّا يفوّت عليه مجالاً للعلم والمعرفة وقراءة القرآن، رغم ظروفه الصعبة التي نشأ فيها كطفلٍ وحيدٍ، ورغم نوع عمله الشاقّ الذي يتطلّب منه الوقت الكثير؛ كان يخشى أحلامه وطموحاته، فتارةً يريد أن ينجب الكثير من الأبناء لكي يعيش وينعم بأجواء الأسرة الدافئة التي حُرِمَ منها، وتارةً يفضّل الوحدة التي كانت تلازمه منذ طفولته... كان يراودُهُ إحساسٌ قويٌّ بأنّه لن يعيش طويلاً، وسوف يكون أحد راكبي قطار المغادرين قريباً.

"أحمدُ؛ بماذا تفكّر يا ولدي؟"؛ سألَهُ معلّمُ القرآن. فأجابَهُ: "لا شيء يا أستاذ؛ أعتذر".

كان معلّمُ القرآن يحبُّ أحمدَ لعدّة أسبابٍ، أهمُّها أنّه شابٌّ مجتهدٌ ومحبٌّ لحفظ القرآن، ولأنّه يتيمٌ كذلك.

بدَتْ على أحمد علاماتُ التعب والإرهاق من قلّة النوم، ووجد نفسه كثيرَ السرحان والتأمّل، ولا يعلم لماذا! كانت

تراوده كلّ يومٍ التساؤلات نفسها؛ هل من الممكن أن يراها مرّةً أخرى؟ أم إنّ الصدفة أرادت فقط أن تجعله يعيش أحلام الوهم، وتُذيقه مرارة التفكير والسهر؟

قرّرَ أن يعود إلى أرض الواقع على مضضٍ، فلا جدوى من ذلك، فمثلُهُ لم يُخلَقْ للحبّ والمشاعر وارتشاف حلاوة الانتظار. لكنْ هيهات! فإنّ المسطور في الرقّ المنشور قد صدر حكمُهُ من قبل خلق البشريّة، وليس للإنسان من سيطرةٍ عليه أو قدرةٍ على تغييره، فتلك مشيئةُ الله.

ولم يمضِ يومان حتّى وقف أحمدُ مرتبكاً ومتلعثماً أمام أمّ الفضل! نعم؛ هي أمُّ الفضل... ومن غير مقدّماتٍ بدأت دقّاتُ القلب ودقَّ ناقوسُ الخطر منذراً إيّاه بأنّه سوف يحيا حياة الأمل وما فيها من رجاءٍ وعشقٍ وصبرٍ.

وجدَها أمامه، ولم ينتبهْ لوجود أختها وأخيها الصغير، فتلك عاداتُ أهل المدينة؛ لا يمكن أن تخرج المرأة، أو الفتاة، بدون أخٍ، أو محرمٍ لها، كي يحميها.

"لو سمحت؛ هل من الممكن أن أطلب وجبة غداءٍ؟"؛ سألتْه أمُّ الفضل. فتلعثمَ، وارتبكَ، ولم يستطع النظر في عينيها، ثمّ قال: "نعمْ؛ بماذا تأمرين؟".

وبعدما أخذت طلبها ورحلت، وسمع دبيب خطواتها في قلبه، ظلَّ واقفاً ينظرُ إليها حتّى اختفت عن ناظرَيه.

جلس يلتقط أنفاسه، ولكنّها لم ترحل، بل بقيَتْ وأيّ بقاءٍ؟ فقد رَنَّاهُ جمالُها، وأسرَهُ خجلُها، وتمنّى حينها لو أنّه شاعرٌ لينظم لها القصائد، تمنّى لو أنّه فنّانٌ ليرسم لها لوحةً اسمُها "خاطفة الوجدان"، تمنّى لو أنّه روائيٌّ ليكتب عنها أجمل القصص والروايات، هي أوّلُ مرّةٍ يقرأ فيها كلمات أغنية "قارئة الفنجان".

ومن هنا بدأت رحلةُ البحث والتساؤل؛ أين أنا كإنسان؟

*****

الحبُّ في زمن العفّة

تذكّر أحمدُ قصصَ أبيه وكيف أُغرِمَ بأمّه من أوّل نظرةٍ، وأنّها كانت امرأةً نادرةَ الوجود بجمالها وأدبها وحكمتها. تذكّر كيف عانت وصبرت، ورغم كلّ الصعاب والمواقف المؤلمة فإنّها، وإلى آخر يومٍ في حياتها، ظلَّتِ المأوى الذي يلجأ إليه أبوه.

وأكثر ما كان يتذكّره أنّ أباه لم يدعْ فرصةً للأحلام والخيال، ولم يدعْ فرصةً للشيطان أن يوسوس له، فبمجرّد أن شعرَ بدقّات قلبه حين ولجَ العشقُ فؤادَهُ ذهبَ مباشرةً وخطبَها، لكي يصون ما في داخله من إحساسٍ، فتلك هي قمّةُ الحبّ؛ تريد أن تكون مع مَنْ تُحِبُّ.

ارتبكَ وتوجّسَ خيفةً، وخَلَجَهُ أمره، فهو وحيدٌ، وليس له أحدٌ لكي يكون معه في موقفٍ مثل هذا، ولا يعلم كيف يتقدّم للخطبة، أو ماذا يقول! فتملّكَهُ الهمُّ؛ شعورٌ قاتلٌ أن تكون وحيداً بلا أسرةٍ.

وكالمعتاد أتى العمُّ عبدُ الرحمن لكي يزور أحمدَ في مطعمه، ويتبادل معه الأحاديث، فهو يعتبره بمثابة ابنٍ من أبنائه. وحين رآهُ مهموماً سألَهُ:

- ما بك يا أحمدُ؟ بدا لي منذ يومين أنّك شاردُ الذهن غيرُ سعيدٍ؛ هل أنت بخيرٍ؟

- الحمدُ لله... لا أعلم ماذا أقول لك يا عمّ عبد الرحمن! فعلاً، يوجد ما يشغلُ بالي هذه الأيّام، ولا أعلم كيف أتصرّف، فأنا في حيرةٍ من أمري.

- ما الذي يضايقك يا ولدي؟ شارِكْني همَّك.. ألسْتُ بمثابة أبيك وصديقك الوحيد؟

- بالطبع يا عمّ عبد الرحمن، لكنّه موضوعٌ مُحرِجٌ.

- أعتقدُ أنّنا أصدقاء، وليس بين الأصدقاء أسرار!

- في الحقيقة يا عمّي، إنّني أفكّرُ في حديثك دائماً عن تكوين الأسرة، فإلى متى سأظلُّ وحيداً؟ امممم.. لقد رأيتُ فتاةً، ولا أعلم إن كان من الممكن أن أجرؤ وأتقدّم لخطبتها، أم لا! فقد تردّدْتُ كثيراً؛ أنت تعرفُ أنّني بلا عائلةٍ أو أقاربَ يدعمونني لكي أتقدّم لها.

- ما شاء الله يا ولدي! أخيراً.. لقد أدخلت الفرحة إلى قلبي؛ يعلمُ الله أنّني دائمُ الدعاء لك بأن يرزقك الله الفتاة الصالحة التي تدخل السعادة إلى بيتك. بالطبع يجب أن تتقدّم لخطبتها، ويشرّفُني أن أكون معك عندما تتقدّم للخطبة إنْ أردت.

- حقّاً يا عمّي؟ هل من الممكن أن تُرافِقَني لخطبتها؟ ألفُ شكرٍ لك؛ لقد أرحت قلبي، وأزحت عن على كاهلي حِمْلاً، فقد أمضيْتُ أكثرَ من يومٍ لا أعلم ماذا أفعل! ولا أعلم كيف أتكلّم، أو كيف أتقدّم!

- لا عليك يا ولدي؛ سوف تتسهّلُ بمشيئة الله، فطالبُ الزواج يكون في ذمّة الله، وربُّنا يسهّل له كلّ أمره، لكنْ مَنْ هي يا ولدي؟

- لقد رأيْتُها مع العمّ محمّدٍ إمامِ ومؤذّنِ مسجد حارتنا، وأعتقدُ أنّها ابنتُه.

- ونِعْمَ العائلة التي اخترت يا ولدي! دعْني أحدّد معه موعداً عمّا قريب لزيارته في منزله بعد إذنك، وإنْ شاءَ الله تكون من نصيبك وتكون خيراً لك.

- شكراً لك يا عمّ عبد الرحمن، ولن أنسى لك هذا الموقف أبداً.

- شكراً لك أنت أنْ سمحت لي أن أكون معك في هذه الخطوة المباركة.

ولأوّل مرّةٍ في حياة أحمدَ سارَ في فجاجٍ تجلَّتْ فيه شمسُ الأمل وأشرقَتْ.

خطبة مَنْ دقَّ لها قلبي

- حللْتَ أهلاً ووطئتَ سهلاً يا عبد الرحمن؛ لقد أنرتَ منزلي أنت وابنُنا أحمدُ.

- أهلاً بشيخنا الفاضل محمّد؛ أتمنّى أن تكون أنت والأسرة الكريمة بخيرٍ، وأتمنّى أن تكون زيارتُنا موفّقةً.

- الحمدُ لله يا عبد الرحمن؛ كلُّنا بصحّةٍ وعافيةٍ، وزيارتُكم شرفٌ لنا. كيف حالك يا ولدي أحمد؟ ولماذا أنت صامتٌ؟

كان الارتباكُ واضحاً على أحمد في جلسته وفي ملامح وجهه، وكان يجيبُ وهو متلعثمٌ: "الحمدُ لله يا عمّ محمّد".

- في الحقيقة، يا محمّد، سببُ زيارتنا أنّه يشرّفُنا ويسعدُنا أن نتقدّم لخطبة ابنتنا أمّ الفضل إلى ابننا أحمد على سنّة الله ورسوله، وأتمنّى أن ينال طلبُنا لديكم القبولَ.

- هذا شرفٌ لنا يا عبد الرحمن، فأحمدُ شابٌّ صالحٌ، وهو مواظبٌ على الصلاة وعلى حضوره لدروس القرآن، كما أنّه شابٌّ طموحٌ وعلى قدرٍ عالٍ من تحمّل المسؤوليّة منذ طفولته. وحقيقةً إنّي معجبٌ به، ولكنْ دَعْني أستخيرُ الله، ثمّ ندعُ أمرَ الموافقة لابنتي فهي صاحبةُ القرار في هذا الشأن.

- بالطبع يا شيخ محمّد، وأتمنّى لهما التوفيق، وأنت تعلمُ أنّ أحمدَ بمثابة ابنٍ لي، وأنا على أتمّ الاستعداد لجميع طلباتكم

في حال الموافقة بمشيئة الله، ويعلم الله يا شيخ محمّد أنّه لو كانت لديّ بنتٌ لكنتُ زوّجْتُها لأحمدَ منذ زمنٍ طويلٍ.

- في الحقيقة يا عبد الرحمن كلُّ سكّان الحيّ يكنّون لأحمد كلّ الحبّ والاحترام.

- شكراً لك شيخنا الفاضل، وإنْ شاء الله نسمع منك الأخبار الجميلة عمّا قريب.

عادَ أحمدُ إلى منزله بعد أن تناولا وجبة طعام العشاء عند الشيخ محمّدٍ، وبعد أن أوصل العمَّ عبدَ الرحمن إلى منزله. لم يشعر بنفسه إلّا وقد أصبح على وسادته، ولم يستطع النوم فقد بدأ عنده عدّادُ الانتظار؛ "آهِ يا أبتِ! كم تمنّيتُ لو كنتَ معي اليوم".

*****

شهر العسل

- لم أكنْ أعلمُ، يا أحمد، أنّ إسطنبولَ جميلةٌ!

- نعمْ، هي من أجمل مدن العالم، وكانت تُعرَفُ قديماً بالقسطنطينيّة التي فُتِحَتْ على يد محمّدٍ الفاتح، وهي عاصمة تركيّا، وتُعتبَرُ واجهةً سياحيّةً مميّزةً تستقبلُ كلَّ سيّاح العالم. وقد تميّزت بمناظرها الجذّابة وجبالها الشاهقة وطبيعتها الخصبة التي بسببها نجد لديهم أطيب الفواكه والخضروات، كما أنّها متقدّمةٌ في الصناعة والتجارة، فهي من الدول الأولى التي تصدّر القطن والأجهزة الكهربائيّة وغيرها الكثير من المنتجات التركيّة. وقد زُرْتُها مع أبي في طفولتي، ولكنْ لم نستقرّ فيها لفترةٍ طويلةٍ، فقد كانت غايتُنا الاستقرارَ في المدينة.

- حقّاً هي مدينةٌ جميلةٌ ومثيرةٌ، والأجواءُ فيها رائعةٌ، وزخّاتُ المطر تتهاطلُ لتداعب المشاعر، ونسائمُ الزهور والحدائق تُطيِّبُ الخاطر. كم تمنّيْتُ أنْ أزورَها من قبل! شكراً لأنّك لبَّيْتَ طلبي بقضاء شهر العسل هنا.

- غايتي سعادتك يا حبيبتي، فأنا من اليوم الأوّل الذي رأيتك فيه سألتُ الله؛ إنْ كنت من نصيبي سأسعى جاهداً لإسعادك، فأنت مَنْ جعلت لقلبي نبضاً.

احمرَّ وجهُها خجلاً، وهمست في أذنه: "أنت الفارسُ الذي لطالما كنت أحلم به". فوشوشَها قائلاً: "وأنت، يا أمَّ الفضل، أجملُ وأروعُ مَنْ رأَتْ عيني".

توقّفت الألسنةُ عن الكلام، ونطقت الأعينُ بما في جعبتها من إحساسٍ، وسارا فوق رمال الشاطئ والأيدي في احتضانٍ، والقلوبُ في حالة نبضٍ، وقد أصابَتْها سهامُ العشق والسعادة عند غروب الشمس.

كانت ضحكاتُ أمّ الفضل تعلو إلى السماء، وهي تلتقطُ صوراً لجامع السلطان أحمد مستمتعةً بالزهور ونافورات الماء من حولها. وظلَّتْ تركضُ لتسبقَ أحمدَ إلى متحف آيا صوفيا الذي تمَّ بناؤُهُ ككاتدرائيّةٍ مسيحيّةٍ في العهد الرومانيّ، ثمّ تمَّ تحويلُهُ إلى مسجدٍ، ومن ثمّ إلى متحفٍ إسلاميٍّ في الخلافة العثمانيّة.

وبعد الانتهاء من التقاط الصور من متحف آيا صوفيا اتّجها إلى متحف توب كابي الذي تمَّ بناؤُهُ بأمرٍ من السلطان محمّد الفاتح، وكان مركزَ القيادة حينها، وأصبح من أجمل المتاحف في العالم الإسلاميّ والعالم ككلٍّ. ومن أهمّ أركانه جناح السعادة الذي يحتوي على سيف النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم)، وأثر

قدمه، وقوسه، وشعراتٍ من لحيته الشريفة، وبعض أغراضه الشخصيّة.

ظلّت أمُّ الفضل تتنقّلُ بين أركان المتحف منبهرةً، وقد غمرها السرور. وفي أثناء تنقّلهم بين الأماكن السياحيّة لاحظت انتشار أماكن شواء الكستناء، وكانت رائحتها الزكيّة تشدُّها لتذوقها.

رغم معاناة أحمدَ في حياته فقد سجدَ لله شكراً يوم زفافه، كان يخشى أن يعيش ما تبقّى له من العمر وحيداً، فأمُّ الفضل أتَتْ إلى حياته كنبراسٍ يُضيءُ له الحياة، وكزهرةٍ تُعطّرُ له أنفاسه؛ أتَتْ ولا تعلم أنّها طوقُ النجاة من ليالٍ سادَ فيها الخوف والحزن وارتشاف مرارة الفراق.

تذكّر أحمدُ في ليلة زفافه كيف دمعَتْ عينا الشيخِ محمّدٍ والدِ أمِّ الفضل فرحاً لزواج ابنته، وكيف استأمَنَهُ عليها، وطلبَ منه أن يجعلها نصبَ عينيه، فهي أغلى ما يملك، وهي درّةُ منزله، وهي الضحكةُ التي تشعُّ فرحاً في كلّ أركان بيته، فقد سمّاها أمَّ الفضل نسبةً للصحابيّة المعروفة أمّ الفضل بنت العباس التي كانت أوّلَ امرأةٍ اعتنقت الإسلام بعد أمّ المؤمنين خديجة (رضي الله عنها)، وقد عُرِفَتْ بشجاعتها في القصّة

المعروفة في التاريخ، عندما ضربت أبا لهبٍ بعمودٍ من خشبٍ على رأسه، فشجّته، وذلك عندما رأتْهُ يضربُ شخصاً مسكيناً في حجرة زمزم بمكّة، ومات أبو لهبٍ بعد ضربتها المؤثّرة بسبعِ ليالٍ. وهي التي ولدت للعبّاس ستّة رجالٍ لم تلد امرأةٌ مثلهم.

قال أحمدُ لحبيبته: "حبيبتي؛ ما رأيك أن نتناول وجبة العشاء؟ فالطعامُ هنا لذيذٌ، والشواءُ التركيُّ معروفٌ بلذّته، ولديهم كذلك البوريك والإسكندر؟".

فأجابته: "يا ليت.. فالأجواءُ فعلاً جميلةٌ، وباردةٌ، وتُشعِرُني بالجوع".

وفي أثناء تناول الطعام عاد ليتغزّل بها قائلاً: "حبيبتي؛ هل ترين هذه الشمعة؟ أنت مثلها في حياتي".

تلعثمت، وارتبكت، ثمّ قالت له بخجلٍ: "أتمنّى من أعماق قلبي أن أكون لك الشمعةَ التي تنيرُ حياتك ودربك".

وعادا للصمت بعد أن امتلأَتِ القلوبُ عشقاً.

ثمّ قال لها: "حبيبتي؛ الغريبُ في الأمر أنّه رغم معاناة السفر إلّا أنّني لا أشعرُ بالتعب قطّ!".

ابتسمت وقالت له: "فعلاً وأنا كذلك، فشعورُ السعادة جعلني لا أشعرُ بأيّ شيءٍ آخرَ".

بادلَها الابتسامة، وقال: "لقد أعددْتُ لك برنامجاً سياحيّاً نزور فيه جزر الأميرات لنأكل فيها البوظة، ثمّ نزور مدينة بورصة لننعم بثلوجها البيضاء. ومن ثمّ نمكث في مدينة إزمير، وآهِ من إزمير وروعتها! حقّاً أتمنّى أن ينال البرنامج السياحيّ رضاك".

فقالت له: "إنّني واثقةٌ، يا حبيبي، أنّه سيعجبُني، فمن أوّل هديّةٍ أحضرْتَها لي علمْتُ أنّ لديك ذوقاً رفيعاً وحُسنَ اختيارٍ".

كانت أجمل ثلاثين يوماً في عمر أحمد، وتمنّى لو أنّها حلمٌ لا يستيقظ منه.

وفي آخر يومٍ قال لها وهما يستعدّان للعودة إلى الوطن الغالي: "حبيبتي؛ كانت أجملَ أيّام عمري، ليتها لم تنقضِ بسرعةٍ".

فقالت له: "فعلاً حبيبي؛ كانت أسعدَ أيّام حياتي.. كم كنتُ أتمنّى لو نقضي فترةً أطولَ! ولكنّني اشتقتُ لأبي وأمّي وإخوتي ولمنزلنا".

قال لها: "إنْ شاءَ الله سنكرّرُ هذه التجربة كثيراً، وإنْ شاءَ الله نعود بالسلامة، وتزورين أهلك وأحبابك".

وفُتِحَتْ أبوابُ السماء للقلوب التي امتلأتْ بالدعاء.

السعادة (أمّ الفضل)

لم يعلم أحمدُ أنّ الزواج والاستقرار من أجمل النعم على الإنسان في الحياة، خصوصاً الزواج من زوجةٍ فيها جميعُ الصفات الجميلة من جمالٍ، وأدبٍ، وحياءٍ، وذكاءٍ، وعطاءٍ. عادَ من شهر العسل وهو في قمّة الحيويّة والنشاط، فقد تجدّدَ لديه الأملُ، وأصبح في حياته سببٌ يعيش لأجله.

كانت أمُّ الفضل في غبطةٍ تامّةٍ وهي تزورُ أهلها حاملةً لهم الهدايا الجميلة من إسطنبول، وجلست تروي لهم روعة الأجواء الممطرة، ولذّة الطعام، وجمال الطبيعة الخلّابة، وطيبة الشعب... لكنّ أختَها إيمان رفيقة دربها وكاتمة أسرارها لم تكتفِ بكلّ هذه المعلومات الشيّقة، فسألتها: "ماذا عن الحبّ والرومانسيّة والكلام الجميل بين العشّاق؟".

كانت أمُّ الفضل تمتازُ بخجلها، وكانت علاماتُ السعادة باديةً على ملامحها، فردَّتْ مجيبةً على سؤال أختها إيمان: "لقد رزقَني ربِّي أكثرَ ممّا تمنّيت".

عادَ أحمدُ من عمله مبكّراً على غير عادته قبل الزواج، حتّى إنّ أمَّ الفضل لم تكن قد انتهت بعدُ من تجهيز سفرة العشاء والاستعداد لاستقباله، وإذا بأحمدَ يُفاجئُها وهو يدخلُ عليها

بتأنٍّ حاملاً في يده وردتين بيضاء وحمراء، وهديّةً مغلّفةً تفوحُ منها رائحةُ الياسمين.

أسرعت أمُّ الفضل إلى غرفتها لكي تغيّر ملابسها وتستعدّ لاستقبال حبيبها، وعندما عادت وجدت أحمدَ قد جهّز السفرة، ووضع الطعام، وأطفأ الأنوار، وأشعل الكثير من الشموع، وجلس بعيداً في ركن البيت ينتظرها.

احمرَّتْ وجنتا أمّ الفضل خجلاً، وهي ترى أحمدَ يقتربُ منها ليقدّم لها الوردتين، ويُمسك يدها قائلاً: "لم أستطع مقاومة لهفتي لرؤية عينيك، فالشوقُ أبى أن ألزمَ مكاني، ونداءُ جوارحي جعلَني أُلبّي نداءك... هذه الوردةُ البيضاءُ تشبهُك في نقائك، وهذه الحمراءُ نبضُ قلبي تجاهك. ومن أعماق قلبي أتمنّى أن تنال الهديّة إعجابك".

لم تنبسْ بأيّ كلمةٍ للحظاتٍ، ولم تستطع الكلام، وارتجفت يداها، فالخجلُ ونبضاتُ قلبها لجموا لسانها، وأنطقوا عينيها.

سادَ السكونُ قليلاً بينهما، ثمّ قبّلَتْ جبينَهُ ويدَهُ، وقالت له: "أدامَكَ الله لي زوجاً وحبيباً".

في أثناء تناول الطعام قالت له:

- حبيبي؛ شكراً.. حقّاً قد أدخلت الفرحة إلى قلبي.

- حبيبتي؛ كلُّ آمالي وغايتي أن أرى ابتسامتك فقط، وأن أرى حولنا من الأبناء الكثير.

- إنْ شاءَ الله.. لكنْ أخبرني الحقيقة؛ ماذا تتمنّى أن يرزقنا الله أوّلاً؟ صبيّاً أم فتاةً؟

تمتمَ، ثمّ قال: لا أعلم! كلُّ الذي يأتي من الله هو بالتأكيد خير، ولكنّني فعلاً أتمنّى أن يكون لأبي الكثير من الأحفاد يحملون لقبَهُ.

- حبيبي؛ هل تتوقّع أنّهم سيكونون أبناءً مميّزين؟

- مَنْ تكون أمُّ الفضل أمَّهُ بالتأكيد سيكون ذا حظٍّ سعيدٍ.

أخذَتْهُما الأمنيات، وبدأا الدعاءَ أن يرزقَهما الله خيرَ وأصلحَ الأبناء.

*****

ميلاد محمّد

كانت من أقسى اللّحظات على أحمدَ تلك اللّحظاتُ وهو يسمعُ أنينَ حبيبة قلبه وهي تَلِدُ له أوّلَ أبنائه، إذْ راعَهُ المشهدُ، وهمَّ بالرحيل، لكنّه لم يستطع، فذهب ليجلس في صالة المنزل، وقد تملّكَهُ القلق والخوف والحزن على حبيبته.

وعاد بشريط ذكرياته إلى طفولته، فتذكّر نشأته يتيماً، وتذكّر تفاصيل رحلته الطويلة مع أبيه، وكم تكبّد من معاناةٍ... تذكّر حين حدّثه أبوه عن رغبة أمّه في أن يكون لها أحفادٌ كثرٌ، لكنّ مشيئةَ الله لم تشأْ لها أن تحيا لترى أحمدَ وترى أحفادها.

ظلَّ أحمدُ مبحراً في ذكرياته المؤلمة، حتّى قاطعَتْهُ القابلةُ، وقالت له: "مباركٌ لك؛ لقد رُزِقْتَ بصبيٍّ وسيمٍ".

صمتَ أحمدُ لوهلةٍ، ولم يستطعِ النطقَ؛ أَيُعقل بعد كلّ هذه الوحدة والمرارة والحرمان، وخسارة أبيهِ، وأمِّهِ، وإخوةٍ لم يرَهُمْ، وعائلةٍ في أقصى الأرض لا يعلمُ إلى أيِّ مدىً تمتدُّ جذورُها، أن يكون له صبيٌّ يحكي له أمجاد أجداده ونضالهم؟! أَيُعقل أن يكون له سندٌ في زمنٍ كان قاسياً عليه، ولم يكن في عونه إلّا الله؟!

جثمَ على ركبتيه، ثمّ سجدَ لله شكراً، وطفقَ ينظرُ متأمّلاً في ابنه، فوجدَ فيه الأملَ بعد اليأس، وجدَ فيه شعاعَ الضوء بعد طول الظلام، وجدَ فيه نسائمَ عبير الياسمين بعد جفاءٍ دامَ لسنين... وجدَهُ مبتسماً ضاحكاً، وهنا ولأوّل مرّةٍ في حياته يضحكُ فَرِحاً من أعماق قلبه الحزين.

فجأةً سمعَ صوت خالته مريم والدة زوجته وحبيبة قلبه تقولُ له: "مباركٌ ما رزقَكما الله يا ولدي، وأسألُ الله له الصلاحَ، وأن يكون قرّةَ عينٍ لكما".

فقال لها: "الله يبارك فيك يا خالتي". وقبّلَ يدها مبتسماً ممتنّاً لعطفها وحنانها، ثمّ ذهب لكي يطمئنَّ على صحّة رفيقة دربه أمِّ الفضل.

دنا منها، وقال: "حمداً لله على سلامتك يا أجملَ مَنْ رأَتْ عيناي، ودقَّ لها الفؤادُ عشقاً". وقبّلَ رأسها شكراً وامتناناً لِما عانَتْهُ من تعب الحمل وآلام الولادة، فطلبَتْ منه الطفلَ لكي تُرضعَهُ من حليبها.

جلس أحمدُ في قمّة سعادته متأمّلاً حبيبتَهُ وابنَهُ الذي ردَّ إليه روحه، وأدخلَ الفرحة إلى قلبه ومنزله.

أتى الشيخ محمّدٌ والدُ أمِّ الفضل لكي يبارك ويهنّئ، وهو في قمّة الفرح والسرور. ثمّ قال لأحمدَ مباركاً: "ما شاءَ الله! وبسم الله! ألفُ مبارك يا ولدي أحمد... هل أذّنْتَ في أذنيه يا ولدي؟".

أجابَهُ أحمدُ: "لا يا عمّي؛ كنت أنتظرك لتدعو له، فينال فضلَ أذانك له في أذنيه؛ هذا من بعد إذنك".

فقال له الشيخُ محمّدٌ: "بالتأكيد يا ولدي؛ فهو أوّلُ حفيدٍ لي وأوّلُ فرحةٍ. ولكنْ، ماذا تريدُ أن تسمّيه؟".

حينها رجفَ قلبُ أحمدَ، ورأى مستقبله وتاريخه، وصمتَ لوهلةٍ، ثمّ قال: "أُسَمِّيه، بإذن الله، باسمِ سيّدِ البشريّة وباسمِ جدَّيهِ العظيمَين: محمّداً". ثمّ حملَ أحمدُ ابنَهُ، وهمسَ في أذنه اليمنى قائلاً: "يا مَنْ أتى ومعه الأملُ ونورُ الحياة؛ أَسميْتُكَ محمّداً"، وكرّرَها ثلاث مرّاتٍ.

ثمّ أذّنَ في أذنه اليمنى جدُّهُ المؤذّنُ الشيخُ محمّدٌ، ودعا له. وكانت أبوابُ السماء مفتوحةً.

وعدَ اللهُ كلَّ مَنْ قامَ في منتصف اللّيل داعياً بالاستجابة، وكانت هذه أُولى طلبات أحمدَ من ربّه.

السعادة والحب

- يا محمّد؛ اجلسْ هادئاً ودَعِ (الأباجورة).. لا تكسرْها.

ما شاء اللّه يا إيمان! هذا الصبيّ سيجنّني، فهو كثيرُ الحركة، لكنّ ابتسامته الجميلة تغفرُ له كلّ حركاته.

- صحيحٌ يا أختاه؛ حماهُ اللّه، وما شاء اللّه عليه! جميلٌ، ووسيمٌ، وتظهر عليه ملامحُ الذكاء.

- فعلاً، هكذا يقول أحمدُ؛ إنّ محمّداً يخطف القلوب، وإنّه سيكون ذا رزقٍ واسعٍ. أتعلمين أنّه كلّ يومٍ يمسكُ بثوب أبيه لكي يأخذه معه إلى عمله؟

- هذا جيّدٌ؛ هذه بوادرُ أنّه سيكون تاجراً متميّزاً.

إيمانُ أختُ أمِّ الفضل التي تصغرُها سنّاً، وهي صديقتُها وأقربُ الناس لها. وكانت تتميّزُ بجمالها وحيائها وفطنتها، وقد كانت في أوج حَبْرِها حين تقدمَّ أيمنُ لخطبتها؛ أيمنُ الشابُّ الوسيمُ ذو الخُلقِ الرفيعِ وابنُ العائلة الكريمة.

رغمَ أنّ الله رزقَ أمَّ الفضل صوتاً جميلاً جدّاً منذُ ريعان طفولتها فإنّها لم تعِ ذلك إلّا عند تلاوة القرآن وإنشاد الأناشيد. كانت لصوتها عذوبةٌ، تخشعُ عند سماعه الطيور، وتميلُ أغصان وأوراق الزهور، وتطربُ أذنُ كلِّ عاشقٍ محروم. وهذا سببٌ من أسبابٍ كثيرةٍ أخرى جعلت لها صديقاتٍ كثيراتٍ

جدّاً، إلّا أنّ إيمانَ تظلُّ الأختَ الحبيبة والصديقة الوفيّة وصندوق الأسرار.

استأذنت إيمانُ بالعودة إلى منزل أبيها لكي تساعد أمّها مريم في توضيب البيت، ولكي تشرع في الخيال مع زوج المستقبل، وأيضاً لتدع أمّ الفضل تكملُ نشاطها اليوميّ.

كانت أمُّ الفضل تستعدُّ لاستقبال زوجها عند عودته من العمل، لكي يتناول معها وجبة الغداء، فقد سادت السعادة والحبّ منزلَ أحمد منذ ارتباطه بأمّ الفضل، فهي التي جعلت منزلَهُ جنّةً تفوح منها رائحة الغاردينيا واللافاندر.

ركض محمّدٌ إلى أحضان أبيه كي يلعب بشاربه كالمعتاد، ويعاتبه لعدم السماح له بالذهاب معه إلى العمل. وجلس أحمد يلعب مع محمّد، وكان صوت ضحكاتهما يملأ المكان.

وبعد تناول وجبة الغداء قالت أمُّ الفضل لابنها: "تعالَ يا محمّد، ودَعْ أباكَ يرتاحُ قليلاً من تعب وإرهاق العمل". فقال لها أحمدُ: "دعيه، بعد إذنك يا حبيبتي، فإنّ كلَّ معاناتي وآلامي تختفي في أحضانه وعند رؤية ابتسامته".

وفي المساء عندما يحينُ وقتُ النوم كانَ أحمدُ يروي الحكايا لابنه كما كان أبوه يفعل؛ كان يروي له قصصَ أجداده وأعمامه

وبطولاتهم وانتصاراتهم، ويحكي له عن شجاعة أبيه وطيبته وعطفه وتضحياته... وكان يروي له حكاياتِ العشق والغرام التي جمعت بين أبيه وأمّه زُهرة؛ الحبّ السرمديّ الذي لم يرَهُ، ولم يرتوِ منه. كان يروي القصص والحكايات، وهو مبتسمٌ، وفي قلبه ألفُ جرحٍ وألفُ ألمٍ.

ومن ركنٍ بعيدٍ من أركان المنزل، ومن بين أجنحة الظلام الدامس، كانت أمُّ الفضل تستمعُ لقصصٍ لم يروِها لها حبيبُها، وعيناها تذرفان الدموعَ لِما عاناهُ حبيبُها الذي لم تَرَ سوى ابتسامته منذ زواجهما.

أرهقَني صمتُكَ يا حبيبي...

أرهقَني جلوسُكَ في أركان المنزل وحيداً مُدارياً جروحَ غدر الزمان...

إلى متى ستحملُ الحزنَ في قلبك؟ وإلى متى ستظلُّ أسيرَها؟

آهِ يا حبيبي! لو كانَ الأمرُ بيدي لَمحوتُ لك الماضي والذكريات!

*****

حزنُ أمِّ الفضل

رغم صعوبة ظروف الحياة فقد فتحَ الله لأحمدَ جميعَ أبواب الرزق بسخاءٍ منذ قدوم ابنه محمّدٍ إلى الحياة ضاحكاً مستبشراً، وبسبب صغر منزله اشترى أرضاً في شارع قباء النازل، وهي من أشهر الشوارع في المدينة المنوّرة حتّى وقتنا هذا. ومن ثمّ تمَّ بناءُ منزله المكوّن من ثلاثة طوابقَ، وكان مطلّاً على أجمل بساتين المدينة، وكان حلمُهُ حينها أن يرى أحفادَهُ أمام عينيه من ابنه الحبيب محمّد الذي أيقظَ فيه حبَّ الحياة.

لم ينسَ أحمدُ حلمَ أمّه زُهرة بأن يكون لها من الأحفاد الكثير، حتّى أصبحَ حلمَهُ الذي يراوده ليلَ نهارَ... وفعلاً مَنَّ اللهُ عليه بأبناء كثر من حبيبة قلبه أمِّ الفضل، فقد رُزِقَ بمحمّدٍ عضده في الحياة، ثمّ بخالدٍ الشابّ الوسيم صاحب الصوت العذب، ثمّ بفضليّةَ صاحبة الأخلاق الفضيلة، ذات الكرم والجود، وكانت من عشّاق علم الرياضيّات، ورُزِقَ بعبد الوهاب الذي له آفاقٌ وطموحاتٌ ونجاحاتٌ في عدّة مجالاتٍ، وكان حلمُهُ أن يصبحَ طبيباً، ثمّ غلا الزهرة الفوّاحة بعطرها الجميل، صاحبة أحنِّ قلبٍ في الوجود، وكانت تعشقُ التاريخ وأحداثه، ولارا صديقة الطبيعة والمناظر الخلّابة، ولها في علم الفقه الكثيرُ، وعبد العزيز عاشق الرياضة والقراءة والكتابة،

وأخيراً لمار دلوعة منزل أحمد، وآخر العنقود، وحبيبة الجميع، وكان طموحُها أن تحصل على أعلى درجات العلم.

أمُّ الفضل صبرَتْ على مشقّات الحياة مثل غيرها من فتيات جيلها، إلّا إنّ صبرَها أصبح هزيلاً عند فقدانها أحبَّ الناس إلى قلبها أباها الذي كان محورَ الكون لديها. وكانت التجارة مهنته في الحياة، وفي نفس الوقت كان مؤذّناً في مسجدٍ معروفٍ في المدينة، وكان معظمُ أهل المدينة يقدّرونه ويحترمونه لوقاره، وطيبة قلبه، وكرمه، وعطفه على الفقراء والمساكين. ومع هذا وذاك كان القلبَ الأحنَّ على أهل بيته، ففراقُهُ لم يكن بالأمر الهيِّن.

حاولَ أحمدُ بكلّ الطرق أن يخفّف من وطأة مرارة الألم والحزن لديها، فهو أكثرُ مَنْ يعلم جيّداً إحساسَ الفقد، ويعلم إحساسَ خسارة مَنْ نحبُّ، إلّا إنّها أُرهِقت، وذبلت، فتلاشت الابتسامةُ المضيئةُ التي كانت تشعُّ نوراً لِمَنْ حولها.

كان كلامُ أمّ الفضل من القرآن، وأفعالها من القرآن، ومعظم وقتها تُمضيه بين سعادة من حولها وبين يدَي الرحمن؛ تطلبُ منه العفو والغفران والرحمة لِمَنْ رحلَ وفي وجهه نورُ الإيمان.

لم يشأْ أحمدُ أن يرى حبَّهُ الأوّلَ والأخيرَ منكسراً ومجروحاً وحزيناً، لم يُرِدْ لها أن ترتشف من نفس العلقم الذي أضناهُ على مرّ السنين، العلقم الذي قد أدمى وجدانه فألزمه الحزن ضريحاً، وقد نافح الصعاب ووعورة الهضاب بساحة الأرض الفيحاء، ليتجلّى ويخرج من مضيق اليأس والانهزام.

"ها هي تستقي من المُرّ، ولكنْ هيهات! سأشّنفُ في أذنيها تغاريدَ نسائم الصباح، حتّى أرى وترى جمالها الخلّاب، فهي مَنْ صنعت للعشق ألفَ باب".

وبعد مرور عدّة سنواتٍ من الحزن، عاد ليستطرد مآل الكلام علَّهُ يخرجها من حزنها:

- حبيبتي ما رأيك أن نسافر إلى مصر سويّةً؟ فلديَّ هنالك بعض الأعمال ينبغي أن أنجزها، وسنزور صديقي رفعت محمّد الذي قد تعرّفت عليه في أثناء قدومه إلى المدينة بغرض أداء العمرة وزيارة بيت رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، وقد أخذ منّي وعداً بزيارته في القاهرة. وأنا في أمس الحاجة لمرافقتك لي من أجل التعرّف على أسرته، ولكي تساعديني بلمسات ذوقك الرفيع في اختيار البضائع وكذلك الهدايا، وأيضاً من أجل أن

نزور مدن مصر الجميلة التي لطالما ذُكِرَتْ في الروايات والتاريخ بما فيها من روعة ضفاف النيل وطيبة شعبها وكرمه.

- حبيبي أرجوك؛ سافرْ أنت، ودَعْني مع أبنائنا، فما زالوا بحاجةٍ إلى رعايتي.

- أرجوكِ أنت؛ السفرُ من دونك لا طعمَ له ولا فائدةَ، وسوف نأخذُ معنا أبناءنا، لكي يزوروا الأهرام والقناطر، ولكي يذوقوا طعم سمك بحر مدينة الإسكندريّة، ويسبحوا في شواطئها.

كان جلّ همِّ أحمدَ حينها أن ينجح في العبور بحبيبته من سيل الحزن، وألّا يجعلها تستلم لليأس، وأن تعود كما كانت سيّدة نساء العالم.

*****

أمُّ الدنيا

جلست أمُّ الفضل تتأمّلُ أبناءها وهم يسبحون في شواطئ الإسكندرية في آخر ليلةٍ لهم في مصر، لكنّ خيالها أخذها في قطار الذكريات إلى أحضان أبيها، فتذكّرت كيف علّمَها وغرزَ فيها حبَّ الصلاة والقرآن وحبَّ الخير للآخرين، وتذكّرت أمّها التي جعلت منها أنثى، وعلّمتها آداب الكلام والحوار وكيف تكون سيّدةً كاملةَ الأوصاف مع زوجها وأبنائها ومع باقي البشر، وتذكّرت أحداث خطف ابنها محمّدٍ قبل أيّامٍ، إذْ كادَتْ تفقدُ بصرَها من البكاء عليه؛ تمتمَتْ في داخلها: "آهِ يا أبي! رحيلُكَ أظلمَ طريقي، وكتمَ أنفاسي وشهيقي، وأماتَ طموحاتي وآمالي".

أتى محمّدٌ لكي يحضن أمّه كعادته، فمحمّدٌ منبعُ الحنان، وضحكتُه تهلهلُ في أصداء كلّ مكانٍ وتُذيبُ ثلجَ الأحزان.

قالت أمُّ الفضل في نفسها: "لولا محمّدٌ وإخوته وأبوهم لما رُسِمَتِ البسمةُ على وجهي مرّةً أخرى". ثمّ خاطبَتْ حبيبَها أحمدَ قائلةً:

- حبيبي؛ شكراً على كلّ ما تبذله لكي تُسعدني وتُنسيني آلامي.

- حبيبتي؛ إنّ ابتسامتك وسعادتك هما النورُ الذي يضيءُ حياتنا.
- أدعو الله لك يا حبيبي أن يهبَك السعادة الدائمة، والحقُّ معك فيما قلت؛ إنّ مصرَ دولةٌ جميلةٌ، وشواطئُها رائعةٌ، وطعامُها لذيذٌ.
- الحمدُ لله أنّها نالت استحسانك، فأنا سعادتي تكمنُ في أن أراكم جميعاً في حالة سرورٍ وفرحٍ. وقد ابتهلْتُ عندما رأيتهم متحمّسين في أثناء زيارة الأهرام وهم يستمعون للمرشد السياحيّ وهو يحدّثهم عن عجائبها وأسرارها وطريقة بنائها وتشييدها. وقد أبهرني حينها محمّدٌ في ركوب الخيل، فقد ذكّرَني بأبي بحبِّهِ لركوب الخيل ورعايتها.

حقّاً قد أحببْتُ أمَّ الدنيا وشعبَها، فأهلُها لا تفارقُ الابتسامةُ وجوههم، ولديهم حسُّ الفكاهة والمرح والكرم، خصوصاً صديقي رفعت محمّد ضابط الشرطة الذي لولاه لفقدْتُ ابني الغالي محمّداً، وتهتُ في مصرَ وأرجائها.

رفعت الصديقُ الوفيُّ والنموذجُ المشرِّفُ لشعب مصرَ، والذي أصرَّ هو وزوجتُهُ المصون أن يُقيما لنا الولائم في كلّ مساءٍ، وقدّمَ لنا يدَ المساعدة لتسهيل عمليّة التنقّل من القاهرة إلى الإسكندريّة، حيث حجز لنا في مقصورةٍ من الدرجة الأولى في القطار، لكي يُجنِّبَنا عناءَ السفر.

وحقاً كانت رحلةً جميلةً وميمونةً، تمرُّ بين غيطان وبساتين رائعة المنظر، حتّى إنّنا لم نشعر بالوقت إلّا حين وصولنا محطّة قطار الإسكندريّة عروس البحر الأبيض المتوسّط.

وكان يطمئنُّ علينا في كلّ خطواتنا منذ وصولنا الإسكندريّة، وكان في استقبالنا سائقٌ من طرفه لكي يوصلنا إلى فندق سيسل، ويلازمنا طوال فترة رحلتنا.

فندق سيسل من أجمل الفنادق المطلّة على شاطئ الإسكندريّة وأقدمها، ويعدُّ تحفةً معماريّةً، وقد امتازَ بتصميمه الفلورنسيّ الإيطاليّ الذي يميّزُ المدينة، ويتكوّن من خمسة طوابقَ، ويحتوي مجموعةً من الأثاث الكلاسيكيّ والتحف القديمة، وقد ارتاده الكثيرُ من المشاهير والزعماء، منهم الملك

فيصل بن عبد العزيز، والزعيم محمّد نجيب، ونجيب محفوظ.

- محمّد حبيبي؛ شكراً على هذا الفندق الرائع بشكله وتصميمه وإطلالته على الشاطئ، فعلاً إنّه مريـحٌ للأعصاب ومبهرٌ للأعين.

- نعمْ، هو في قمّة الجمال والرونق! لقد نصحَني به صديقي رفعت، وقد أحسنَ الاختيار.

وبعد مرور عدّة أيّامٍ على إقامتهم في الإسكندريّة، زاروا فيها العديدَ من الأماكن الجميلة، ومنها مكتبة الإسكندريّة التاريخيّة، والمتحف اليونانيّ الرومانيّ، وكذلك قصر المنتزه الرائع الذي يضمُّ حدائقَ وغاباتٍ خلّابةً ذاتَ تصميمٍ معماريٍّ غاية في الإبداع؛ خرجَ محمّدٌ لوحده، وقد بلغَ حينها من العمر أربعةَ عشرَ عاماً، لكي يتعرّف على طرقات المدينة، وقد ذرعَ الأزقّةَ ليلاً، وفي أثناء سيره صادفَ شخصاً في عمر الثلاثين يبدو عليه التعبُ والإرهاقُ، طلبَ منه أن يساعده في حمل بعض الكراتين إلى داخل شقّته، وعندما دخل الشقّة ووضع الكراتين جانباً، وجدَ هناك ثلاثةَ شبّانٍ مختلفةٌ أعمارُهم، ووجوهُهم

تثيرُ الريبةَ، فهمَّ بالخروج سريعاً، لكنّهم باغتوه، وأوصدوا البابَ، وتجمّعوا عليه، وقاموا بربطه ووضع شريطٍ لاصقٍ على فمه لكي يكتموا صراخه، ثمّ تركوه حتّى يهدأ ويستسلم للوضع الراهن.

وبعد مرور نصف ساعةٍ قاموا باستجوابه، وأخذوا منه بياناته وبيانات الفندق المقيم فيه هو وأسرته، ثمّ قامَ أحدُ أفراد العصابة بالتوجّه إلى إحدى الطرق الرئيسيّة، واستخدمَ هاتفاً عموميّاً، وأجرى اتّصالاً مع الفندق، وطلبَ تحويلةَ الغرفة التي يقيمُ فيها أبوه أحمد.

- ألو! من معي؟
- هل أنت أحمدُ والدُ محمّدٍ؟
- نعمْ، مَنْ معي؟
- إنّ ابنَك محمّداً معنا، وإذا كنت تريدُ استردادَهُ يجبُ أن تدفع لنا فديةً قدرُها خمسمائةِ جنيهٍ مصريٍّ... فكِّرْ في الموضوع، وسوف أتّصلُ بك بعد نصف ساعةٍ، ولا تُبلغِ الشرطةَ إنْ كنتَ تريدُ أن ترى ابنَكَ مرّةً أخرى.

بدَتْ على أحمدَ ملامحُ القلق، وحين سألَتْهُ أمُّ الفضل؛ مَنِ المتّصلُ، أجابَها: "إنّهم من إدارة الفندق؛ يريدون أن أذهب إليهم لإيداع مبلغٍ في حساب الغرف". وخرجَ أحمدُ مسرعاً من غرفته متّجهاً إلى غرفة محمّدٍ، فلم يجدْهُ، فسألَ عنه أخاهُ خالداً، فقال: "إنّهُ خرج ليتنزّه قليلاً بجوار الفندق حتّى يحينَ موعدُ العشاء. لماذا يا أبي؟".

فأجابَهُ: "لا شيء؛ أحببْتُ فقط أن أطمئنّ عليكم جميعاً". ثمّ توجّهَ إلى استقبال الفندق، وطلبَ إجراءَ مكالمةٍ هاتفيّةٍ إلى القاهرة مُعوِّلاً على صديقه رفعت.

- ألو! رفعت؛ السلامُ عليكم، وأعتذرُ على اتّصالي في هذا الوقت غير المناسب، لكنّ الموضوعَ خطيرٌ وضروريٌّ.
- أهلاً صديقي أحمد؛ طَمْئِنّي؟ ماذا جرى؟ لقد أقلقْتَني!
- لقد تمَّ اختطافُ ابني محمّدٍ، وقد استقبلْتُ اتّصالاً قبل خمسِ دقائقَ من شخصٍ يطلبُ فديةً، وقال إنّه سيُعاود الاتّصال بعد نصف ساعةٍ لتوفير المبلغ، وطلبَ ألّا أُخبِرَ الشرطة إنْ كنتُ أريدُ أن أستعيدَ ابني.

- هدِّئْ من روعك، وانتظرْ مكالمتَهُ، واطلبْ منه أن يُمهلك مدّة ثلاث ساعاتٍ لعدم توفّر المبلغ لديك، وأخبِرْهُ أنّك سوف تقترض المبلغَ من صديقٍ لك، وانتظرْني في بهو الفندق، وسأُكلِّمُ أحدَ زملائي في شرطة الإسكندريّة لكي يأتي إليك حالاً، فلا تقلقْ.

عادَ محمّدٌ مسرعاً إلى غرفته، ولم يستطع أن يخفي ملامحَ الخوف والقلق، فاضطرّ أن يُخبِرَ أمَّ الفضل التي أصابها الهلع، وطلب منها التزام الصمت والتحلّي بالصبر والهدوء لكيلا يشعرَ بقيّةُ أبنائهم بأيّ قلقٍ، حتّى يستطيع التصرّف بهدوءٍ وحنكةٍ.

وفعلاً طلب من الخاطف مهلةً حتّى يتسنّى له توفيرُ المبلغ، وأن يعاود الاتّصال بعد ثلاث ساعاتٍ كما نصحَهُ صديقه الضابط رفعت. ثمّ اتّجهَ إلى بهو الفندق لينتظر زميلَ رفعت.

ولم تمضِ دقائقُ معدودةٌ حتّى وصلَ الضابطُ طارقٌ، فتعارفَا، ثمّ طلبَ الضابطُ طارقٌ من موظّف السنترال ألّا يحوّلَ المكالماتِ الواردةَ لأحمدَ إلى غرفته، وأن يبلغَهُ بأيّ اتّصالٍ خاصٍّ بأحمدَ. وبعدَ أن روى أحمدُ القصّةَ للضابط جلسَا ينتظران رفعت.

وبالفعل، وقبل أن تمضي الساعاتُ الثلاثُ المليئةُ بالقلق والتوتّر، وصلَ رفعت ومعه عدّةُ أفرادٍ متخفّين بلباسٍ مدنيٍّ، وطلبَ من أحمدَ أن يتمالكَ أعصابَهُ، وأنْ يُبلِغَ الخاطفين أنّ المبلغَ أصبح معه، وأن يطلبَ منهم تحديدَ مكان اللّقاء لأخذ المبلغ، وأن يحضروا محمّداً معهم، وأنّه لن يُسلِّمَ لهم المبلغ إذا لم يرَ محمّداً معهم.

وفي أثناء المكالمة طلبَ الخاطفُ من أحمدَ أن يخرج من الفندق متّجهاً غرباً، وأن يسير على امتداد الشارع الرئيسيّ حتّى يجد اللّفةَ الثالثةَ التي يميّزُها كشكٌ لبيع السجائر، فيدخل منها ليجد مدخلاً آخرَ ضيّقاً في اتّجاه اليمين، ويقطع مسافة مئة مترٍ، ثمّ يقف هناك، وينتظره.

تنكّرَ رفعت وأفراد الشرطة الذين يتبعونه، وظلّوا يراقبون أحمدَ من بعيدٍ، حتّى وصل إلى المكان المتفّق عليه. وقفَ أحمدُ لعدّة دقائق، ثمّ أقبلَ عليه أحدُ أفراد العصابة وهو ملثّمٌ، لم يُظهِرْ من وجهه سوى عينيه، فطلبَ الفديةَ من أحمدَ، ولكنّ أحمدَ رفض طالباً أن يُريه ابنَهُ محمّداً أوّلاً، فأشارَ

الخاطفُ إلى شخصٍ يقفُ بعيداً في آخر الشارع، فكشفَ له عن محمّدٍ.

ولم تمضِ ثوانٍ معدودةٌ حتّى هجمَ الضابطُ رفعت على الشخص القابض على معصم محمّدٍ، ولَكَمَهُ على فكّه، وطرحَهُ أرضاً، ومن ثمّ قيّدَهُ بالأصفاد. وفي نفس الوقت قبضَ الجنود الآخرون على الخاطف الذي استسلمَ على الفور، واعترفَ ببقيّة أفراد العصابة.

قال أحمدُ لصديقه رفعت: "لا أعلمُ ماذا أقول لك يا صديقي رفعت! فكلُّ كلام الشكر لن يفيَكَ قدرَكَ والمجهودَ الذي بذلته من أجلنا، فلولا اللهُ ثمّ أنت وأفراد الشرطة المصريّة لكنتُ خسرتُ ولدي.. شكراً لك من أعماق قلبي".

فقال له رفعت: "لا تقلْ ذلك يا صديقي أحمد، فهذا واجبُنا تجاهَ وطننا وشعبنا، وعلينا حمايةُ زوّار وسيّاح مصرَ، وأنا لا أنسى اهتمامك وحرصك وحسن ضيافتك عندما كنتُ في المدينة المنوّرة".

وبعد السلام والوداع تمنّى رفعت لصديقه أحمد أن يستمتع بالأيّام المتبقّية له في الإسكندريّة، وشدّدَ على محمّدٍ أن يأخذَ حذرَهُ دائماً.

عادَ أحمدُ وابنُهُ محمّدٌ إلى الفندق، وكانت في انتظارهم أمُّ الفضل التي كاد أن يُغشَى عليها عندما رأت ابنَها، فحضنته، وقالت له: "حمداً لله على سلامتك يا ولدي، لا أعلمُ ماذا كان سيحصلُ لي إنْ لم تَعُدْ!". وظلَّتْ تحضنُهُ وتقبّلُهُ.

ولم تمضِ أيّامٌ معدودةٌ حتّى انقضَتِ الإجازةُ التي كانت على هيئة رحلة عملٍ، ورجعَ أحمدُ وحبيبته وأبناؤه إلى أحبِّ البقاع إلى الله سبحانَهُ وتعالى، إلى المدينة المنوّرة. وطالَ السهرُ والحديثُ الممتعُ عن أجمل الأحداث المضحكة في الرحلة الممتعة التي تمنَّوا لو أنّها لم تنتهِ، لولا حادثةُ محمّدٍ التي لا يعلمُ بها أحدٌ من إخوته.

*****

وتحقّق الحلم
وأصبحتُ جدّاً

مضت الأيّامُ مسرعةً، وقد سكنت الفرحةُ قلبَ أحمدَ، واستُبدِلَتِ الحالُ بأسعد حالٍ، من حياة ألمٍ وعذابٍ ومرارةِ فراقٍ إلى سعادةٍ وفرحٍ واستقرارٍ، فأمُّ الفضل وأبناؤه جعلوا مسكنَهُ جنّةً يسودُها حسنُ التربية، وطيبُ الأنْفُس، وحبُّ الإخوة، والدعمُ، وقوّةُ جسور الترابط الأسريّ بينهم.

أصبحت الابتسامةُ لا تفارقُ ملامحَهُ، وحلمُهُ يكبرُ مع أحلام أبنائه. ورغم أنّه كان لديه أصدقاء يجتمعون عنده بعد الانتهاء من أعمالهم اليوميّة للعب الضومنة، فقد كانت ذروةُ سعادته بين أفراد أسرته.

لم يستطع أحمدُ أن يقاوم دموعَ الفرح عندما سمعَ خبرَ أنّه سيصبح جدّاً، فسجدَ لله شكراً وعرفاناً، وقال في نفسه: "آهِ يا أبي! وآهِ يا أمّي! ليتكما معي لتشاركاني تحقيقَ حُلمِكما؛ سأصبحُ جدّاً من ابني خالدٍ الذي لطالما وعدَني ونفذَّ وعدَهُ بأنّه سينجبُ لي من الأحفاد الكثير، ليلبّي رغبة أجداده".

أخذَ خالدٌ بعضاً من صفات جدّه محمّدٍ، فقد كان طويلَ القامة، وممشوقَ القوام، وذا ابتسامةٍ جذّابةٍ. وله من حلاوة

اللّسان طلاوةُ ما يُنطَقُ في القصائد والأشعار، كما أنّ لديه صوتاً عذباً في الأناشيد تطربُ له العقول وتهيمُ به القلوب.

أتى خالدٌ حاملاً في يده طفلَهُ الوسيمَ إلى أبيه وأمّه يستأذنُهُما في تسميته، فقال له والده:

- ما شاء الله يا ابني خالد! إنّ ابنَك جميلٌ مثلك، الله يحفظه ويجعله قرّةَ عينٍ لكما، وينفع به الإسلام والمسلمين.
- الحمدُ لله، يا أبي، الذي رزقَني ابناً أشدُّ به أزري، ويكون لك حفيداً يحملُ كنيتك ولقبك.
- حقّاً، يا ابني، لقد أسعدْتَني، ولا تعلمُ لأيِّ مدىً أنا سعيدٌ بوجودكم في حياتي، وبرؤية أحلام أمّي تتحقّق.. فعلاً إنّه من أجمل أيّام حياتي.
- أسألُ الله لك العيشَ الهانئَ الدائمَ يا أبي، وأستأذنُكَ أن أُسمّيه يوسف، وأن ينال شرف أن تؤذّن في أُذنَيه.
- ونِعْمَ الاسم الذي اخترت! بالطبع يا ولدي، فهو أوّلُ فرحةٍ، وأوّلُ مَنْ سيجعلُني أحملُ لقبَ الجدّ.

لم يكن أحمدُ يعلم أنّه سيعيش ليرى أحفاده، ولم يكن يعلم أنّه سيأتي يومٌ يحصد فيه ثمرة صبره ودعائه.

أعادَهُ إلى يقظة الواقع صوتُ أبنائه، والسعادةُ تغمرُهم لاستقبالهم الضيفَ الجديدَ في أسرة أحمدَ.

*****

ليالي الفرح
ودقّ قلب محمّد

- أحمدُ حبيبي؛ لقد كلّمَتْني أمُّ مجاهدٍ؛ تريدُ أن تخطب ابنَها مجاهداً لابنتنا غلا، فأجبْتُها بأنّني سأخبرُ أباها وأوافيهم بالردّ في القريب بمشيئة الله.
- ما شاء الله! ونِعْمَ الناس! فوالدُ مجاهدٍ رجلٌ فاضلٌ، وسمعتُهُ في المدينة مُشرِّفةٌ. لكنْ دعيني أسألُ عن مجاهدٍ في عمله ولدى الجيران عن أخلاقه وصلاته، ومن ثمّ نترك القرار لابنتنا غلا.

وبعد السؤال والتأكّد من أخلاقه وصلاته وحسن تعامله مع الناس، وكذلك صلاة الاستخارة، تمَّتِ الموافقةُ، وتمَّ تحديدُ موعد النظرة الشرعيّة التي أتى فيها مجاهدٌ مع أُمّه وأخواته لرؤية غلا وإلباسها سِواراً في يدها دلالةَ الإعجاب والموافقة، كما جرَتِ العادةُ في المدينة المنوّرة. ولم تمضِ أيّامٌ حتّى استقبل أحمدُ وأبناؤه في بيته مجاهداً وأباه وإخوته الرجال وأعمامه لقراءة الفاتحة.

وبعد شهرٍ من الخطبة تمَّ عقدُ القِران في المسجد النبويّ بعد صلاة المغرب، وهنّؤُوا العريس، وتمنّوا له التوفيق داخل قفص الزواج. وبعد صلاة العشاء دعا والدُ مجاهدٍ أحمدَ

وأقاربَهُ لتناول العشاء في بيته لتقوية أواصر القرابة والرحم فيما بينهم.

في اليوم الثاني كانت الشبكة، كما جرَتِ العادةُ في المدينة، وكانت الدعوةُ خاصّةً بالنساء فقط، وفي بعض الأحيان تشمل الرجال المقرّبين من أهل العريس والعروس، فيجتمعون في صالةٍ منعزلةٍ عن النساء، بعد أن يقوم أهل العروسة بدعوة أهل العريس والجيران والمعارف. ألبسَ مجاهدٌ غلا المحبسَ، وألبسَتْهُ بدورها الخاتمَ، ثمّ قدّمَ مجاهدٌ شبكته المكوّنة من الذهب الخالص، وعربيّةً محمّلةً بالهدايا والعطور.

كانت غلا سعيدةً وهي تجوبُ الأسواقَ مع أمّها وأخواتِها لتجهّز نفسها للعرس وتفصّل فستان الزفاف، وقد احتارت وهي تبحثُ عن هديّةٍ تليقُ بزوجها مجاهدٍ، وكالعادة كانت أختها لمار تساعدها في اختيارها.

تمَّتْ مراسمُ الزواج في ليلةٍ طويلةٍ مليئةٍ بالفرح والسعادة، وبالدموعِ أيضاً، ولكنْ أيّة دموعٍ؟ فقد امتلأت عينا أمِّ الفضل بالدموعِ فرحاً لابنتها صاحبة الابتسامة الدائمة، وصاحبة المقالب والمواقف المضحكة. في تلك اللّيلة كانت غلا ساحرةً بجمالها الفاتن، فأصابَتْ سهامُها قلبَ مجاهدٍ.

وبعد مرور عشرة أشهرٍ استقبلَ منزلُ أحمدَ أوّلَ حفيدةٍ من ابنته غلا الحبيبة، وأسمَتْها إيمان، وفعلاً كان اسماً على مسمّى، فإيمانُ كان وجهُها مليئاً بالحبّ والحنان، وكانت الملاك الأوّل ودلوعة أبيها وأجدادها.

"أبي أستأذنُكَ في السفر إلى مصر لكي أجلب البضائع، وأحضر زفاف صديقي عليّ"؛ قالَ محمّدٌ لأبيه.

- في رعاية الله يا ولدي محمّد؛ أتمنّى لك التوفيق، ولكنْ احذر من البضائع الرديئة، ولا تنسَ أن تتفاوض معهم للحصول على أفضل عرض سعرٍ قبل الشراء، كما أرجو منك أن تزور عمّك وصديقي رفعت، وتبلغه تحيّاتي، وتعطيه هديّةً تليقُ بمقامه.
- إنْ شاءَ الله يا أبتِ.

اعتاد محمّدٌ السفرَ مع أصدقائه لشراء البضائع، فهو ورثَ عن أبيه وجدّه حبَّ التجارة، واستمرَّ في بيع وشراء الموكيت والمفارش، وبدأ مؤخّراً في شراكةٍ مع صديقه سهل في تجارة الملابس الجاهزة، وبسببها سافر إلى تايلاند وباكستان ومصر لجودة القماش والصوف لديهم.

كان محمّدٌ سعيداً وهو يذرعُ شوارعَ القاهرة بدءاً من ميدان التحرير ووصولاً إلى ميدان العتبة، وذلك بعد زيارة العمّ رفعت الذي كان مسروراً بزيارته، ولم ينتهِ يومه حتّى شعر بالجوع هو وصديقه سهل الذي سافر معه لحضور زفاف صديقهم عليّ.

- سهل؛ ما رأيك أن نتناول الكباب على الغداء في مطعم الرفاعي؟ فطعامُهم لذيذٌ وشهيٌّ.
- كما ترى يا محمّد، فأنا لا أشكُّ في اختيارك للمطاعم. ودعْنا لا نتأخّر، فأمامنا سفرٌ غداً إلى محافظة دمياط لحضور زفاف صديقنا عليّ، فبالتأكيد سيكون في أمسّ الحاجة لنا في مثل هذه اللّيلة.

وبعد تناول الطعام عادا إلى الفندق، وعند وصولهما وجدَ محمّدٌ صديقه صبري من مصر في انتظاره في بهو الفندق، وبعد تبادل السلام استأذن سهل كي يصعد إلى غرفته ويأخذ قسطاً من الراحة، وجلس محمّدٌ وصبري في قهوةٍ مصريّةٍ بجوار الفندق لكي يشربا الشاي ويعسلا معسل بطعم زغلول.

- محمّد صديقي؛ أنا سعيدٌ بمجيئك إلى مصر، قد نوّرت القاهرة بحضورك.
- شكراً يا صبري، والنور نورك يا باشا.

- محمّد إيه رأيك لو نشفلك عروسة من هنا؟ وتكون سبب لزيارتك لمصر، ويكون لك هنا أهل وأقارب؟

- لا أعرف يا صبري، ولم أفكّر في هذا الموضوع من قبل، وفي النهاية مسألة الزواج قسمةٌ ونصيبٌ.

وبعد حديثٍ شيّقٍ عن مصرَ وليالي القاهرة استأذنَ محمّدٌ من أجل العودة إلى الفندق، ليتسنّى له نيلُ قسطٍ من الراحة قبل سفره في الصباح عن طريق القطار.

وفي أثناء مراسم الزفاف التي كانت جميلةً برقصة الخيول ورقصة التنورة، لمحَ محمّدٌ فتاةً جميلةً وهادئةً وناعمةَ الملامح، وقد ظهرَ في تصرّفاتها الخجلُ، وقامَ محمّدٌ وصديقه سهل للرقص مع صديقهما العريس عليّ ولمشاركة الرجال بالرقص الشعبيّ الخاصّ باستخدام النبود.

كانت ليلةً جميلةً بمعنى الكلمة، لكن ثمّةَ ما أرّقَ تفكيرَ محمّدٍ وأذهبَ النومَ من عينيه، فالفتاة التي لا يعرفُ حتّى اسمها قد شغلَتْ بالَهُ، وأوقدَتْ لهيباً لا يعرفُ كيف يطفئُهُ.

ذهب محمّدٌ وسهل في اليوم الثالث بعد الزفاف إلى الفندق الذي يقيم فيه صديقهم العريس عليّ كي يباركا له، ويقدّما له هديّة الزفاف، ويشاكساه قليلاً، وفي أثناء المزاح والضحك

استأذن سهل لكي يدخّن سيجارةً خارج بهو الفندق، وحينها مالَ محمّدٌ إلى صديقه عليّ، وقال: "بالأمس رأيتُ في الزفاف ضمن الحضور فتاةً كانت ترتدي فستاناً أحمرَ اللّون، وكانت تضعُ غطاءً على شعرها، وقد لفتَني أدبُها وهدوءُها... هل تعرفها؟ أو تعتقد أنّها من أقارب زوجتك؟".

أجابهُ عليٌّ: "لا أعلمُ يا محمّد! ولكنْ دَعْني أصعد إلى الغرفة لكي أسأل زوجتي وأرى إن أصبحت مستعدّةً لزيارة منزل أبيها".

فقال له محمّدٌ: "سامِحْني، يا عريس، إن أزعجتُك أو سبّبْتُ لك إحراجاً".

قال له عليٌّ: "أبداً يا صديقي، لا تقلْ ذلك، فربّما تكون صاحبةَ النصيب".

لم يغبْ عليٌّ أكثر من خمس دقائق، ثمّ عادَ وهمسَ في أُذن محمّدٍ: "إنّها ابنةُ خالة زوجتي، واسمها أفنان، وهي عزباء".

*****

عشُّ الزوجيّة

بعد مُضيّ ستّة أشهرٍ لم يجد محمّدٌ نفسه إلّا في عشّ الزوجيّة، وكان في قمّة سعادته، فلم يكن يعلم أنّ الزواجَ متعةٌ وراحةٌ نفسيّةٌ بالرغم من نصح أصدقائه وأخيه خالدٍ له دائماً بالزواج في مقتبل العمر لكي ينعم برفقة أبنائه.

جلس محمّدٌ يعيدُ شريط الذكريات، تذكّرَ كيف دقَّ قلبُه حين رأى أفنان لأوّل مرّةٍ في زفاف صديقه، فلم يذقْ طعمَ النوم ليلتها من خفقان قلبه الغريب، ولم يعلم إنْ كان يخفقُ بسبب جمالها أم بسبب خجلها وأدبها. تذكّرَ كيف عاد مسرعاً إلى بلده، لكي يشارك أمّه ويبوح لها بمشاعره الجيّاشة التي لم تنضب ولم ترضخ للهدوء والتريّث.

سُعِدَتْ أمُّ الفضل، وابتسمَتْ وهي تصغي لحبيب قلبها وصديقها الذي لا يخفي عنها شيئاً، ويستشيرها في كلّ أموره. وما كان منها إلّا أن تلبّي نداء قلبه، فسافرت إلى مصرَ مع أحمدَ وبقيّة أبنائها، لكي يتقدّموا لخطبة مَنْ أسرَتْ قلبَ ابنها الكبير، ويعيشوا أجمل اللّحظات في زفاف محمّدٍ.

- حبيبتي أفنان؛ أتمنّى أن تكوني سعيدةً وأنت في الجزء الخاصّ بك من منزل العائلة؛ إنّها عادةٌ من عادات أهل المدينة في بداية الزواج.

- بالتأكيد حبيبي محمّد؛ إنّني في قمّة سعادتي، وصراحةً في البداية تملّكَني بعضُ الخوف والقلق من أنّي سأحيا بعيداً عن أهلي ووطني، وسأكملُ باقي عمري في بلدٍ لها طبائعُ وعاداتٌ وتقاليدُ مختلفةٌ عن التي في بلدي، ولكنّ أمّي أمَّ الفضل وأخواتك الصبايا سهّلْنَ عليّ الأمرَ، وأشعرْنَني بأنّني في بيتي، فلم أشعر بأيّة غربةٍ.
- الحمدُ لله حبيبتي، فقد كنتُ أخشى ألّا تتأقلمي، أو لا تشعري بالسعادة، خصوصاً التأقلم مع عاداتنا وتقاليدنا.
- على العكس؛ الحياةُ هنا جميلةٌ وبسيطةٌ، والناسُ يتّسمون بالطيبة في كلّ مكانٍ، حتّى إنّي لم أُعانِ من طريقة لبس الحجاب والعباءة، فأختُكَ غلا علّمَتْني كيف أرتديه، وأمّي أمُّ الفضل علّمَتْني كيف أطهو الطعامَ السعوديَّ المتنوّعَ، خصوصاً المأكولات التي تحبّها.

هلَّتِ الفرحةُ في منزل أحمدَ الذي عاش بعدها أجملَ لحظاتِ عمره وهو يزفُّ ابنَهُ عبدَ الوهاب، وبقيّةَ بناته فضليّة أكبر بناته وصاحبة القلب الكبير الحنون، ولارا البنت المرحة المشاكسة التي تحبُّ الضحك والمرح في معظم أوقاتها. وكان

يتمنّى أن يمدَّ الله في عمره ليحضر زفاف أصغر أبنائه عبد العزيز الذي أتعبَ قلبَهُ من كثرة مشاكله مع زملائه في المدرسة، لكنّه كان يطيّبُ خاطره بسماع كلامه وكلام أمّه، ولمار دلوعة أبيها وزهرة بيته التي لطالما أعدَّتْ له فنجانَ قهوته، وارتمَتْ في أحضانه.

*****

السعادةُ رزقٌ

وإنْ غابت الأسباب

عمَّتِ السعادةُ حياةَ أحمدَ فأصبحت أملاً وتفاؤلاً، وكبرَتْ عائلته، وأصبح لديه الكثيرُ من الأبناء والأحفاد. وكان جلّ همّه إسعادهم وتوفير كلّ سبل الراحة لهم. وكانت تشاركه في كلّ ذلك رفيقةُ دربه أمُّ الفضل التي كان لها الفضلُ بعد الله في حسن تربيتهم وتعليمهم. وأسعدُ لحظاته عندما رآهم يحملون الشهادات العليا، فمنهم أساتذة وأطبّاء ومهندسون، وبرعوا في التجارة أيضاً.

واكتملت فرحته حين وجد أحفاده يسلكون نهج آبائهم، ويتقلّدون أوسمة فخر حفظ القرآن والتعليم بغيةَ حصولهم على أعلى مراتب العلم. ومن أهمّ ما زرعه أحمد حبُّ الإخوة لبعضهم، ووقفتهم إلى جانب بعضهم البعض وقفةَ الرجل الواحد في أحنك وأصعب المواقف والأوقات.

كان ابنهُ الأكبرُ محمّدٌ أكثرَ شخصٍ يلازمه، ويجلس معه، ويستشيره، فقد كان تاجراً بارعاً، وأكثرُ ما برعَ فيه تجارةُ المفروشات والملابس الجاهزة. تربّى محمّدٌ في زمنٍ جميلٍ، زمن الوفاء والإخلاص والأمانة. وقد عُرِفَ أهلُ المدينة بالأمانة المطلقة، لذا كان التجّارُ يبادلونهم بضاعتهم من غير أوراقٍ أو مستنداتٍ أو إيصالاتٍ رسميّةٍ، فكلمتُهم ووعدُهم أكبرُ ميثاقٍ لديهم.

ظلَّ محمّدٌ يعينُ أباه في تجارته، ويوسّعُ نطاقها حتّى أتى اليوم الذي وقفَتْ فيه ساعةُ الزمن، وشاءَتِ الأقدارُ مالم يشأْ قلبُ بشرٍ.

❋❋❋❋❋

لا وألف لا

"اركضْ سريعاً، لا تقفْ.. أعطِهِ الكرةَ بسرعةٍ؛ هيّا أسرِعْ". وأخذَ الكرةَ لاعبُ الهجوم المتميّز ماجد عبد الله، وراوغَ، وناورَ... ثمّ نعمْ، نعمْ؛ سجّلَ هدفاً، وفازَ المنتخبُ السعوديُّ.. نعمْ، فاز وأخذ كأس آسيا.

قفزَ عبد العزيز وأصدقاؤه فرحاً، وعلَتْ أصواتُهم بأهازيج الفرح، وأصبحَ الشارعُ السعوديُّ في كلّ المدن السعوديّة ممتلئاً بالناس المحتفلين بهذا الفوز الرائع.

فجأةً رنَّ جرسُ الهاتف، في البداية لم يسمعْهُ عبدُ العزيز بسبب الأصوات المرتفعة من حوله، ولكنْ بعد تكرار رنّة الجرس انتبهَ عبد العزيز، وأجاب على الهاتف.

سمعَ صوت صديق أخيه محمّدٍ وفيه شيءٌ من القلق والارتباك:

- عبد العزيز؛ كيف حالك؟ هل أنت وجميع أفراد أسرتك بخيرٍ؟
- نعمْ، الحمدُ لله يا عمّ صالح؛ كلُّنا بخيرٍ، لكنّني بالكاد أسمعُ صوتك! وكأنّ فيه نبرةَ قلقٍ! طَمْئِنّي عليك؟ هل أنت بخيرٍ؟

- نعمْ يا عبد العزيز، ولكنْ، امممممم.. لا أعلم ماذا أقول لك! إنّ أخاكَ محمّداً كان معنا على سفرة الطعام في حفل زفاف صديقنا، وفجأةً تعبَ وشعرَ بضيقٍ في النفس، فحملْناه إلى المستشفى.
- ماذا تقول؟ أخي في المستشفى؟ لماذا.. لماذا؟ في أيّة مستشفى؟ هل هو بخيرٍ؟
- نعمْ، إنْ شاءَ الله إنّه بخيرٍ، نحن في طوارئ مستشفى الملك فهد. ألو.. ألو.. ألو.

رمى عبدُ العزيز سمّاعة الهاتف أرضاً، ولم يستمع إلى باقي المكالمة، وارتجفت يداه، وارتبك، ولم يعلم ماذا يفعل.. وبدأ الخوفُ يتسلّلُ إلى قلبه؛ وقال في نفسه: "لا، أخي محمّد! لا وألف لا. أخي الحنون الكريم، أخي الذي يعاملني كابنٍ له منذ طفولتي، أخي الذي علّمَني نهجَ الحياة، وعلّمَني كيف أكون رجلاً في زمنٍ قلَّ فيه الرجال، علّمَني العطاء والشجاعة واحترام الآخرين، علّمَني كيف أكون في قمّة الذكاء مع مَنْ هم خبيثون، وكيف أكون في قمّة الطيبة والإنسانيّة مع مَنْ هم فقراءُ وضعفاء.. أخي الذي زرعَ في داخلي حبَّ الأُخُوّة، وجعلَها أهمَّ شيءٍ في الحياة".

جلسَ يكرّرُ داخل نفسه: "ماذا أفعل؟ مع من أتكلّم؟". فاتّصل بأخيه الدكتور عبد الوهاب، وقال بصوتٍ مرتبكٍ وخائفٍ: "إنّ أخي محمّداً في المستشفى".

صمتَ الدكتور عبد الوهاب لوهلةٍ، ثمّ قال له: "لعلَّهُ خيرٌ". وطلب منه أن يتوجّهَ إلى المستشفى، وينتظره عند باب الطوارئ.

خرج عبدُ العزيز مسرعاً مع أصدقائه، وتوجّهَ إلى المستشفى. وعند وصوله لم يجدْ أخاه الدكتور عبد الوهاب عند باب الطوارئ، فدخل وسأل أحد العاملين في المستشفى عن أخيه محمّدٍ. وفي أثناء بحثه عن أخيه الكبير وجدَ أخاه الدكتور عبد الوهاب يتحدّثُ مع أحد الأطبّاء، فوقفَ منصتاً لحديثهم، ومن ثمّ توجّهَ إلى غرفة أخيه محمّدٍ.

كان محمّدٌ مستلقياً على سرير المستشفى، وقد وضعوا له جهاز الأكسجين لكي يستطيع التنفّس، وكان لونُ وجهه شاحباً وبالكاد يتنفّس، فاقتربَ منه عبد العزيز ويداه مرتجفتان، ولم يستطع التحدّث.

سمع أخاه الدكتور عبد الوهاب يطمئنه قائلاً: "لا تخفْ يا أخي محمّد؛ إنْ شاءَ الله صحّتُك ستكون على ما يُرام، وتعود لنا بتمام الصحّة والعافية، ولكنْ يجبُ عليك التزامُ الراحة".

أتى أخوه خالدٌ، وكان وجهه مصفرَّ اللّون، وبدا على ملامحه القلقُ والغضبُ، ثمّ سأل عبد الوهاب عن وضع أخيه الصحّيّ بصوتٍ يكادُ يُسمع، لكنّ إجابةَ عبد الوهاب لم تكن مقنعةً، وصوته به شيءٌ من التوتّر، حينها وصلَ أصدقاءُ محمّدٍ، صالحٌ وعليٌّ وعبدُ الكريم، وبدؤوا بالسلام على صديقهم متمنّين له الشفاء العاجل.

خرج خالدٌ وصالحٌ خارج الغرفة، وشرع خالدٌ يطرحُ الأسئلة:

- صالح؛ ماذا حدث لأخي؟ أَلم يكنْ معكم في الزفاف وهو بأتمّ الصحّة والعافية؟
- نعم يا خالد، وكنّا نتسامر، ونتبادل الحديث، ونمزح، ونضحك، ونلعب البلوت حتّى أتى وقتُ وليمة العشاء، وفي أثناء تناولنا للطعام قال له صديقنا حسين: "ليتني أدخلُ، يا محمّد، داخل بطنك، فأرى ماذا تفعل بالطعام!". حينها بدأ لونُ وجه محمّدٍ يتغيّرُ، وبدأت أنفاسه تضيقُ، ولم يقوَ على الكلام، فأتينا به على عجلٍ

إلى المستشفى. لكنّني اضطررْتُ للعودة إلى قاعة الزفاف لكي أجلب سيّارته بعدما كلّمْتُ أخاك الصغير عبد العزيز.

- مَنْ هذا الذي يُدعى حسين؟ يجب أن أذهب وأنتقم لأخي من سخريته، فمن المؤكّد أنّه أصابَهُ بعين الحسد التي لا ترحمُ، وهي التي ألقت به في المستشفى.
- هدِّئْ من نفسك، وتمالكْ أعصابك يا خالد؛ إنّها مشيئةُ الله، وإنْ شاءَ الله سيقومُ محمّدٌ وهو في صحّةٍ تامّةٍ.

نظرَ عبد العزيز إلى عيني أخيه محمّدٍ وهو واجمٌ وخائفٌ، فتلك أوّلُ مرّةٍ يراه بهذه الحالة، وانتبهَ إلى أنّ أخاه يشيرُ إليه بإصبعه ليقتربَ منه، فاقتربَ عبد العزيز، ووضعَ أذنَهُ بالقرب من محمّدٍ، فقال له محمّدٌ هامساً: "اذهبْ إلى بيتي، وخُذْ زوجتي وأبنائي واذهبْ بهم إلى منزل أبي، وطَمْئِنْهم أنّني بخيرٍ".

لم يستطع لسانُ عبد العزيز أن ينطق بأيّة كلمةٍ، فأومأَ إليه برأسه، ثمّ توجّهَ مسرعاً لينفّذ ما أمرَ به أخوه الكبير. ولكنْ هيهات.. ثقلَتْ خطواتُه، وتسارعَتْ دقّاتُ قلبه، فهو ما زال ابن السادسة عشرة؛ كيف سيواجهُ زوجةَ أخيه أفنان التي

لطالما أحبّتْ زوجها، وأخلصَتْ له، وغمرَتْهُ بالحبّ والحنان؟ وماذا سيقول لأبنائه الصغار؟

جمعَ شتاتَ فكره، واستردَّ قواه، ثمّ نفّذَ ما أمرَ به أخوه. عاد بعدها إلى غرفة نومه متأخّراً، وقد أُرهِقَ جسدُهُ من كثرة المشاوير والتفكير والقلق، فاستلقى على السرير وهو في صراعٍ بين أفكاره وبين النعاس.. وفي النهاية لم يستطع المقاومة، فاستسلمَ للنوم.

*****

كم أنت قاسٍ أيُّها القدر!

(معاناة عبد العزيز)

سقطَ من أطراف الهاوية، وظلَّ خائفاً من سقوطه ومن الظلام الدامس من حوله، ودقّاتُ قلبه تكاد تفجّرُ أُذنيه.

وفجأةً استيقظَ على صوت دقّاتٍ على باب غرفة نومه، سمعَ صوتَ أخته الكبرى فضليّة تناديه: "عبد العزيز.. عبد العزيز". فقامَ مسرعاً من فوق سريره ليفتح الباب لأخته فضليّة الحبيبة الرؤوم التي سهرت اللّيالي الطوال من أجل تعليمه وتهذيبه، وزرعت فيه حبَّ القراءة والكتابة. ومن باب الأدب، كما هي العادةُ في المدينة، كان يناديها (أستيته) أو أختي الكبيرة، وهي كنيةٌ تُنادى بها الأختُ الكبرى، أمّا الأخُ الأكبرُ فيُنادى "يا سيّدي" أو باسم أكبر أبنائه.

فتح الباب، فرأى وجهَ أخته فضليّة محمرّاً، وجسدها ينتفض وهي مرتكزةٌ بيديها على الجدران، وكان صوتُها خافتاً جدّاً. حينها هجمَ الخوفُ والرعبُ على قلبه بدون إذنٍ أو درايةٍ، فسألها: "أختي؛ ماذا حلَّ بك؟ هل أنت بخيرٍ؟".

انفجرت دموعها بعد عناء المقاومة، وقالت: "أخي محمّدٌ مات".

قفل بابَ غرفته في وجهها بسرعةٍ غيرَ مدركٍ ما فعله، وسقطَ جسدُهُ أرضاً، ولم يستطع النهوض. وكانت هذه أوّلَ

مرّةٍ يسقطُ فيها حزناً في حياته، رغم قوّته وعناده وذكائه وكبريائه، ورغمَ أنّه شابٌّ لا ترى على وجهه سوى الابتسامة والتفاؤل والأمل، فقد سقطَ، وسقطت معه كلُّ أحلامه ورغباته في الحياة، وانطلقت صرخةُ ألمٍ داخل صدرهِ: "أخي محمّد! لا.. لا".

أُوصدت كلُّ أبواب الفرح في قلبه، وانكسر كبرياؤه، وبدأت خلايا دمه بالعصيان رافضةً الهدوءَ، فأعلنت الغضب، أعلنت الحزن، أعلنت الهزيمة.. وأبَتِ الدموعُ أن تنسابَ من عينيه، وسكن اللّسانُ تماماً.

وفي قمّة الانكسار والاستسلام تذكّرَ عبد العزيز أمَّه وأباه؛ وثبَ مسرعاً، فهو يعلم مدى حبّهم وتعلّقهم بمحمّدٍ؛ فتح باب غرفته وانطلق يبحث عن أبيه. توقّف فجأةً إذْ رأى أباه مُمَدّداً على زرابي في طرف صالة الجلوس خافياً وجهَه وجسده ينتفض.

رأى أحمدَ الذي ذاقَ كلَّ أنواع الألم، ذاقَ كلَّ أنواع مرارة الفراق، إلّا مرارة فراق الأبناء. رأى أحمدَ الذي كان الميت من الأحياء بعد خسارته أباه وأمَّه وكلَّ أفراد أسرته، أحمد الذي لم

يشأ العودة إلى الحياة إلّا بعد أن رأى أمَّ الفضل التي جعلت في قلبه أملاً، ورسمت له خطوط الضحكة على هيئة أبناء.

ولأوّل مرّةٍ يرى دموعَ أحمد، فَعَلا صوتُ القهر داخله؛ يقول: "أبي الذي يُعرَفُ بقسوته وحنّيّته، أبي الذي كانت شخصيّتُهُ كلُّها شموخاً وعزّةً وكبرياء، أبي الذي وعد نفسه أن يعيش فقط لأجل مَنْ تبقّى له في الحياة، لأجل أبنائه فقط".

لم يجرؤ على التحدّث مع أبيه، ولم يستطع حتّى محاولة مواساته أو تهدئته، فانطلق إلى غرفة نوم أمّه، وكاد قلبه يقفُ حين رآها، فقد كانت روحُ أمّ الفضل في ابنها محمّدٍ، وقد خشيَ عليها من وقع صدمة الخبر، رغم معرفته ويقينه بقوّة شخصيّتها وإيمانها إلّا إنّه يعلمُ كذلك مدى تعلُّقها وحبّها وعطائها لأبنائها. فرأى أمَّ الفضل كدأبها ترتدي إزار الصلاة، وتجلس فوق سجّادتها تسبِّحُ ربَّها، وسيلُ الدموع يفيضُ من عينيها، ولأوّل مرّةٍ لا يرى ابتسامتها، فارتمى في أحضانها، وشعرَ بشدّة حرارة جسدها، وسمعَ قوّة دقّات قلبها. وفجأةً سادَ الهدوء، وسقط جسد أمّ الفضل أرضاً بلا حراكٍ، وتوقّفت أنفاسُها، وتغيّرَ لونُها.

"أمّي.. أمّي.. أمّي! أرجوكِ لا؛ أرجوكِ أن تستيقظي"؛ وبدأ عبد العزيز بالصراخ بأعلى صوته، حتّى أتى كلُّ إخوانه وأخواته مسرعين وهم في قمّة حزنهم وانكسارهم، وشعرَ الجميعُ بالخوف والقلق، وكادت أنفاسُهم تتوقّفُ... وبعد عدّة محاولاتٍ لإفاقتها فتحَتْ أمُّ الفضل عينيها، ولكنّها لم تعدْ تفتحُ قلبها، ولم تعدْ تنطقُ بلسانها. استلقَتْ على السرير تنظرُ إلى كلّ أبنائها وتتأمّلُهم، ثمّ نظرت إلى باب غرفتها، وهمست بصوتٍ خافتٍ: "أين فلذةُ كبدي محمّد؟".

حينها هوَتْ أجسادُ أبنائها أرضاً بلا روح، بلا قلب، بلا ابتسامة.

*****

محمّدٌ والطفلان

- طَمْئِنّي يا دكتور عن صحّة والدتنا؟

- لا أعلم ماذا أقول لكم! إنّ جميع الأعراض تشيرُ إلى أنّها كانت بداية جلطة في الدماغ، لكنّها مرَّتْ بسلامٍ والحمدُ لله، وهذا لا يمنع أن تتكرّر، لا سمح الله، فيجب عليكم أن تحذروا وتنتبهوا على صحّتها في الأيّام القادمة.

- إنْ شاءَ الله يا دكتور، لكنّها مع الأسف تعرّضت لصدمةٍ قويّةٍ. هل من أدويةٍ معيّنةٍ يجب أن تأخذها في الوقت الراهن؟

- لا، ولكنْ من المهمّ أن تتجنّب الأخبار السيّئة، ولا تتعرّض إلى مشاعر حزنٍ أو غضبٍ، وأن تنام جيّداً، وترتاح، ولا تبذل مجهوداً عالياً.

هيهاتَ من هذه التي لا تحزنُ ولا تغضبُ، هيهاتَ أن تنام جيّداً.. أمُّ الفضل! محالٌ! فخسارتُها لأبيها سابقاً قد أدمت قلبها وأرهقته، والآن خسرت مَنْ أنجبته ورعته وسهرت اللّيالي لأجله حتّى كبرَ ورأت ابنَيهِ، فكان شعورُها كالفارس الذي بُتِرَتْ يدُه، ومُزِّقَ قلبُه، وسُلِبَ منه سيفُه.

كان محمّدٌ ابتسامةَ العائلة ومصدرَ الأمان، وكان أخواه خالدٌ وعبدُ الوهاب أقربَ إليه في العمر، وفي الصداقة، وفي المواقف. وعند غسله وتكفينه انهارَا من رهبة الموقف، ومن رؤية تجهيزه للرحيل. أمّا أخواته الأربعة فلم يتحمّلْنَ الصدمةَ، فقد كان لهم الأخَ الأكبر الحنون، الأخ الذي يمسحُ عنهنَّ الدموع، الأخ الذي كانت له مع كلّ واحدةٍ منهنَّ قصّةُ مجدٍ وكفاحٍ ورعايةٍ وتضحيةٍ.

كان لمحمّدٍ الكثيرُ من الأصدقاء، وكان معظمُ سكّان المدينة المنوّرة يعرفونه، ويحبّونه، ويكنّون له الاحترام والتقدير، فقد كانت له في كلّ بيتٍ من بيوت أصدقائه بصمةٌ جميلةٌ، وقصّةٌ تُحكَى وتُروَى.

تمَّ دفنُهُ بعد صلاة الجمعة مباشرةً، وقد صُلِّيَ عليه في رحاب المسجد النبويّ. وعند حمل جثمانه كان الحضورُ جمعاً غفيراً، وكانت خطواتُهم تسابقُ الريحَ، وكأنّ الملائكةَ هي التي تحمله. ثمّ دُفِنَ في قبرٍ مجاورٍ لقبر الصحابيّ الجليل عثمان بن عفّان (رضي الله عنه).

ثمّ أتى رجلٌ وكلُّ ملامح الحزن والقهر قد ارتسمت على وجهه، واستأذنَ أن يدفن ولدَيهِ الاثنينِ الصغيرينِ مع محمّدٍ

في قبره، فهما طيرا الجنة اللّذانِ لم ينعما بالحياة تحت سقف السماء. فنزلَ أخوه خالدٌ داخل القبر لكي يدفن محمّداً والطفلّينِ الصغيرينِ، لكنّه للأسف لم يدفنْهم هم وحسب، بل دفنَ معهم قلبَه وروحَه، دفنَ ابتسامةَ عائلة أحمد إلى الأبد.

*****

بداية النهاية

انتهت أيّامُ مراسم العزاء، وعاد كلٌّ من الأحياء إلى حياته، وظلَّ جثمانُ محمّدٍ وحيداً في قبره في بقيع الغرقد، وصعدَتْ روحُه إلى السماء.

سادَ الظلامُ بعد كلّ هذا العناء في منزل أحمد، جفّت الدموع، وماتت القلوب، ورحلت البسمة من الوجوه إلى الأبد.

أفنانُ زوجةُ محمّدٍ تراقبُ غروب الشمس؛ لم تعد تنتظرُ الشروق، فقد رحلَ آخرُ مَنْ تبقّى لها في الوجود؛ رحل حبيبها الذي أدخل السعادة إلى قلبها، رحل بعد أن جعلها ترتشف حلاوة الحياة، لكنّه لم يمكثْ طويلاً كما وعدها، فقد مدَّ يدَهُ لها ليُنقذَها من الغرق في بحر الأحزان عندما مات أبوها، إذْ لم تكدْ تفيقُ من مرارة الألم حتّى تلقَّتْ خبرَ وفاة أمّها بعده بستّة أشهرٍ. ورغم كلّ هذه الآلام والمصائب فإنّها لم تستلم. ولكنْ عندما أذنت لنفسها بأن تصبر وتثابر لكي تحيا ما تبقّى لها من العمر لأبنائها وحبيبها، وجدَتْ حبيبَها راحلاً بلا استئذانٍ؛ رحلَ وتركَها وحيدةً محطّمةً بين رُكام الحياة وبين الخوف من المجهول، من المستقبل الذي ينتظرها هي وابناها، فهي ما زالت ابنةَ الثامنة عشر من العمر.

صمتَتْ أمُّ الفضل، وطالَ صمتُها بعد رحيل أوّل فرحةٍ دخلَتْ قلبها، بعد رحيل مَنْ صبّرَها على فراق أبيها، ورسمَ لها لوحةً عنوانُها "ابتسمي للحياة"، بعد رحيل جسده وبقاء روحه التي لم تفارق أحلامها، ولم تفارق أهداب عينيها.

صمتَتْ وهي تتذكّرُ اللّيلةَ التي زارها فيها قبل وفاته بيومين؛ عندما أتاها بعد صلاة الفجر مباشرةً، وقد كان الخوفُ يعلو ملامح وجهه، فارتمى في أحضانها، وسرد لها قصّة الشيخ الفاضل الذي صعدَ سيّارتَه كي تُقلَّهُ إلى الحرم، ثمّ نظر إليه متأمّلاً، وقال له: "أحسِنْ خاتمتَك يا ولدي". ودعا له بالصلاح وحسن الخاتمة، فانتفضَ قلبُه، ولم يجد نفسه إلّا عند باب المسجد المجاور لمنزل أبيه. ووصف لها كيف انهمرَتِ الدموعُ من عينيه عندما سمعَ الإمامَ يقرأُ:

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾

[القيامة: ٢٦-٣٠].

تذكّرت كيف انتفضَ جسدُ ابنها بين أحضانها، وقال لها: "سامحيني؛ فإنّني أشعرُ أنّني راحلٌ إلى دار الحقّ".

تذكّرت أنّ جميعَ الآلام، والحزن، والخوف، والرعب، وهواجس الأفكار بدأت حينَها. وظلّت تتذكّر وتتذكّر، وظلَّ لسانُها لا ينطقُ سوى بالدعاء له بالمغفرة والرحمة.

فارقت البسمة وجهَ أحمدَ إلى الأبد بفراق مَنْ صنعَها له، فرحيلُ محمّدٍ لم يُحزِنْهُ ويُدْمِ قلبَهُ وحسب، بل كسرَهُ، ودمّرَهُ، وشتّتَ جميع أحلامه وآماله التي بدأت منذ يوم ولادة محمّدٍ.

تذكّر أحمدُ عندما حملَ ابنَه لأوّل مرّةٍ، تذكّر كيف كان نبضُ قلبه يأبى الهدوء والخضوع، تذكّر كيف رأى في عينيه أباه وأمَّه، تذكّر كيف رأى كلَّ تاريخ أمجاد عائلته وأفراد قبيلته، تذكّر كيف رأى مستقبلَه، وتغيّرت أحاسيسُ الحياة لديه من الضياع إلى الأمل.. تذكّر أنّه ألقى القسم بينه وبين نفسه أنْ يتشاركا السعادة والحبّ والتضحية، تذكّر أنّ محمّداً أنساه كلَّ آلام الماضي وخذلانه.

وفجأةً عادَ أحمدُ إلى بحر المآسي، وذكريات فراق أبيه وأمّه، عاد لينتكس ويدخل محيطَ اليأس، ويرتشف كأسَ عذاب الفراق. لكنّه هذه المرّة خسرَ صمّام أمانه، خسرَ مَنْ أعادَ البسمة لحياته، خسرَ الأمل والرغبة في الحياة، خسرَ أهمَّ مَنْ له وكلَّ شيءٍ... وكانت هذه بدايةَ النهايات.

أحزان غيرها

ظلّت أمُّ الفضل تقاومُ مصاعب الحياة، وتثابرُ من أجل عدم الانصياع والانهزام أمام ألم فراق ابنها الذي رحل وأخذ معه قلبها، بقوّة إيمانها وقوّة علاقتها بربِّها، وذلك جعلها تتمسّكُ بآخر حبال الأمل لديها، من خلال تربية أبنائها وابتغاء رضا أمّها ومشاركة إخوتها مصيرهم.

رنَّ جرسُ هاتف المنزل، فأجابت لمارُ الفتاة الصغيرة دلوعة المنزل:

- ألو!
- ألو! مَنْ معي؟ لمار؟
- نعمْ خالتي إيمان؛ أنا لمار.
- كيف حالك اليوم؟ وكيف حال أمّك وجميع إخوتك؟
- الحمدُ لله على كلّ حالٍ؛ ما زالت أمّي تلازمُ سجّادةَ الصلاة، وما زال إخوتي يحاولون تجاوزَ هذه المحنة.
- الله يصبّركم يا بنتي.. هل من الممكن أن أتكلّم مع أختي أمّ الفضل؟
- بالطبع يا خالتي.. أستأذنك الانتظارَ قليلاً حتّى أنقلَ لها الهاتف إلى حجرتها.

وبعد عدّة دقائقَ أجابت أمُّ الفضل، وصوتُها كلُّه جشنٌ وأسىً:

- ألو! السلام عليكم يا إيمان.
- أهلاً أختي الحبيبة، وعليكم السلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه.. كيف حالك يا أختي؟ لقد اتّصلْتُ بك كثيراً كي أطمئنّ على صحّتك.
- الحمدُ لله على ما أصابنا.

وسكتَتْ أمُّ الفضل قليلاً مقاومةً دموعَها، واحتبسَ صوتُها من الحسرة والمأتم.

- ألو! ألو! أختي أمّ الفضل؛ أرجوك تمالكي أعصابك، وكوني قويّةً كما عهدْتُك، يجبُ أن تعودي إلى حياتك الطبيعيّة، وتكملي إعطاء الدروس الدينيّة مثل الأيّام الماضية، كلّ يوم اثنين وخميس.
- في الحقيقة لا أعلم، يا أختاه، إن كنت أستطيع فعلَ ذلك مرّةً أخرى.
- أرجوك يا أختي؛ يجبُ أن تواصلي حياتك، وأنا أعلم أنّ أكثرَ ما يُسعدُكِ إعطاؤك المحاضراتِ الدينيّةَ للكبار وتحفيظُ القرآن للصغار.

- امممم.. أخشى يا أختي ألّا أستطيع، فكيف سألقي المحاضرة وأبعث في الناس روح الابتسامة والتفاؤل، وأنا.. وأنا..

وطالَ صمتُها.

وبعد عدّة شهورٍ من محاولات إيمان المستميتة استطاعَتْ أن تجعلَ أمَّ الفضل تعود، تعود لِمَنْ تبقّى لها في حياتها؛ تعود لزوجها وحبيبها، تعود لِمَنْ هم قُرّةُ عينها، تعود لأمّها، وأخيراً تعود لإعطاء دروسها.

كان أكثر ما يصبّرُ أمَّ الفضل، ويخفّف عنها الآلام، فعل الخير، وتقديم الصدقات، ومشاركتها أحزان غيرها. وكان لأحفادها الدورُ الأكبرُ في التخفيف من مصابها عندما يحومون حولها لكي تُحفِّظَهم القرآن.

ورغم محاولاتِها البائسة للنسيان فقد ظلَّتْ أسيرةً بين حزن فراق ابنها، وبين وهم رسم البسمة في وجهها أمام الآخرين. ولكنْ آهِ من غدر الزمن! آهِ من القدر الذي لم يدعْها تحيا كباقي البشر! فبعد مضيّ أربعة أعوامٍ على رحيل محمّدٍ، بعد أربعة أعوامٍ من الصبر على التعب والحزن والقهر، أتَتْ مشيئةُ الله من فوق سبع سماواتٍ لكي تقبضَ روحَ مجاهدٍ زوجِ ابنتها،

مجاهد ابنها الذي لم تلدْهُ، ولكنّها أحبَّتْهُ بسبب أدبه وكرمه وحسن أخلاقه، أحبَّتْهُ لأنّه أدخلَ السعادة إلى قلب ابنتها غلا الوردة الجوريّة للعائلة، أحبَّتْهُ لأنّه كتمَ سرّ مرضه، وتعايش مع مرضه وألمه وحيداً لكيلا يُدخِلَ الهمَّ في قلوب أبنائه وعائلته وأصدقائه.

وعندما حانت ساعةُ القدر توفّيَ ورحلَ تاركاً قلبَ ابنتها محطّماً ومكسوراً، قلب غلا التي كانت ضحكة وبسمة عائلتها، وكانت اليد الخفيّة لمدّ جسور التواصل بين أفراد أسرتها.

عادت أمُّ الفضل لترتدي ثوبها الأسود حزناً وقهراً على ابنتها التي بدأت تذبل وتموت حزناً. ورغم انكسار أمِّ الفضل فقد لازمت ابنتها ليلَ نهارَ، حتّى تُخرِجَها من سجن المرارة والألم، إلى أن أتى نزار بعد عدّة أعوامٍ حاملاً معه رايةَ السعادة والهدوء والسلام، جاعلاً قلبَهُ لها مركباً يقيها من تخبّطات الزمان. فاستطاع بشجاعته ونبله وأدبه وحدّة ذكائه أنْ يُخرجَ غلا من أحزانها، فكان نِعْمَ الأب الحنون لأبنائها وأبنائه منها.

وبعد أعوامٍ قليلةٍ كادَتْ أمُّ الفضل تستسلمُ لمشيئة القدر، وترضى بها، وترضخُ لِما كتبَهُ النصيبُ، وتتعايشُ بسلامٍ مع أحزان قلبها... لكنْ للأسف؛ لم تشأ الأقدارُ لها الهدوء

والسكينة للمرّة الرابعة؛ فموتُ أبيها أدمى قلبها، ورحيلُ ابنها المفاجئ سلبَ منها كلّ آمالها وأحلامها، وحتّى مجاهد آلَمَها موتُهُ بعد معاناته مرضاً وألماً لا تقوى على تحمّله الجبال.

وفجأةً سقطَ جسدُها أرضاً غيرَ متحمّلٍ أيّة قسوةٍ من الزمان عندما سمعت بخبر مرض أمّها.. أمّها مريم ذات الشعر الطويل والخصر النحيل والخدود الحمراء، أمّها التي تتّسمُ بالخجل والهدوء والحياء، أمّها التي كانت تحبُّها حبّاً جمّاً لأنّها أوّلُ مَنْ جعلها تحمل لقب أُمٍّ، أمّها التي لم يكن بينهما فارقٌ كبيرٌ في العمر، فكانت الصديقةَ والأمَّ، أمّها التي كان رضاها تأشيرةَ سماحٍ لدخولها الجنّة، أمّها التي كانت آخرَ أملٍ لها في حياتها.

*****

دمعة ورحيل

آهٍ منك أيُّها القدر!

آهٍ من فراق البشر!

آهٍ من أحاسيس الألم!

جلست أمُّ الفضل تتأمّلُ أمَّها من خلف الزجاج وهي تتلقّى العلاج؛ شعرت بألم أمّها وقت غسيل الكلى، كأنّها هي مَنْ ترقدُ على فراش المرض.

لم تُرِدْ أنْ تستسلم لليأس، ولكنْ بدأ الخوفُ يتسلّل إلى طيّات جوانحها، يتسلّل إلى قلبها الضعيف الذي عانى الكثير من فراق الأحبّة، فلم تَعُدْ تتحمّل أيّةَ صدمةٍ قد تودي بها إلى النهاية.

وزادت الآلامُ مرضَ أمّها، فزادت نبضاتُ قلبها، وزادَ ضعفُهُ... لم تفارقْ أمُّ الفضل أمَّها أبداً، وجلست بجوارها تلبّي جميع طلباتها واحتياجاتها، حتّى أصبحت لا تنام إلّا أسفل قدميها، وتقضي ليلَها بين صلاةٍ ورجاءٍ ودعاءٍ بأن يشفي الله لها أمّها، وأن يُطيلَ في عمرها.

ورغم ما قاسَتْهُ أمُّ الفضل من مرارة الفقدان، ومن خذلان الزمان، ومن تضحيةٍ بروحها وسعادتها لأجل مَنْ حولها، فإنّها لم ترفض عندما طلبت منها أمُّها أن تلازمها، وتكون بجوارها

في أصعب أوقاتها، لم ترفض لأنّها تريدُ رضا أمّها، تريدُ حبَّها، تريدُ أن تبقى معها إلى آخر أيّامها بكلّ ودٍّ وحبٍّ... لم ترفض رغم أنّها لم تنل من الحياة سوى جهد البلاء وفراق الأحبّاء.

كان كلُّ يومٍ يمرُّ ووالدةُ أمُّ الفضل ترقد على سرير المستشفى بمثابة عامٍ كاملٍ من عمرها، حتّى أصبح البياضُ يكسو كلّ شعرها، وأصبح حزنُ الفراق يسيطر على ما تبقّى من مشاعرها.

كان حبيبُها أحمدُ يلازمُها في معظم أوقاتها، باذلاً كلَّ جهده ليخفّف عنها مصابها وأحزانها، ولكنْ هيهاتَ! بارت الحيلُ، وضاقت السبلُ، ولم يكن بيديه سوى الدعاء لها بأن تنال من الصبر ما قد يسندها على تحمّل فراق ابنها ومرض أمّها.

وفجأةً، وبدون سابق إنذارٍ، بدون أيّ رسولٍ يبلغُ عن رسالة فحواها وقتُ تنفيذ الأقدار؛ توقّفَ جهازُ القلب تماماً مشيراً إلى رحيل أمّها. وهنا تساقطت كلُّ أوراق شجرها، وأتى الخريف قبل أوانه... هنا استسلمت وهي مسلوبةُ الإرادة، وأصبحت خاويةَ الأحاسيس والمشاعر.

وبعد عناء ألمٍ ومرارةٍ كالعلقم، وبعد تذوّق طعم كلّ خذلان الحياة لعدّة أعوامٍ تلَتْ وفاةَ أمّها، لم يستطع قلبُ أمّ الفضل التحمّل، لم يستطع قلبُها أن يستشعر، أو يدرك، أو يستوعب

رحيلها... لم يستطع جسدُها أن يقاوم أكثر من ذلك، لم يستطع تحمّلَ طعنات غدر الدهر، ولا تحمّلَ أمراضٍ أحاطَتْه فألقَتْ به أرضاً، ولا تحمّلَ أخذ جرعات العلاج بدون صرخة ألمٍ تنطقُ بها لكي تعبّرَ عمّا بداخلها، ولا تحمّلَ فراق مَنْ كانوا لفؤادها نبضاً، وكانوا لأنفاسها عبيراً وعوداً وعنبراً.

وفارقت الدموعُ عينيها حتّى أصبحتا بيضاوَينِ من كثرة الضنين والأنين، وسكت اللّسانُ عمّا ينطقه من حكمٍ أو عبرٍ، وارتجفت كلُّ أركان جوانحها.

وبعد طول صمتٍ، وبعد طول رفضٍ للبقاء، وبعد طول انتظارٍ حكمَ القضاء؛ رفعت إصبعها إلى السماء، وملأت البسمة وجهها الجميل الجذّاب الذي كلُّهُ نقاء، ونظرت إلى الجميع من حولها نظرةَ وداع... وقالت بصوتها الذي يخشع له الصخرُ والجمادُ قبل أغصان الشجر والنبات: "أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله، وأشهدُ أنّ مُحمّداً رسولُ الله".

ورحلت روحُ أمِّ الفضل للأبد، وصعدت إلى عنان السماء، تاركةً في قلوب أهل الأرض ألماً وحزناً وقهراً لم يمحُه مطرٌ، ولا كتابةُ رثاءٍ أو شعرٍ، ولا مرورُ عقودٍ من الدهر... تركَتْنا جميعاً نتجرّع كلّ يومٍ ألمَ ذكريات رحيلها مع حلول المساء.

النهاية

بعد مرور عدّة أعوامٍ من الحزن والقهر، عدّة أعوامٍ من الصبر والكفاح وعدم الرضوخ والاستسلام، عاد أحمدُ ليجلس في أقصى زاويةٍ من زوايا منزله التي كانت مقرَّ صلاةٍ وعبادةٍ لحبيبته؛ عاد ليعزل نفسه مع روحها. جلس بجسده المنهك الذي دُمِّرَ من شقاء الحياة وقسوة النصيب والأقدار، جلس بجسده الذي وهنَ به العظمُ، وشابَ شعرُ الرأس، وانطفأ في عينيه نورُ الحياة، وامتلأت ملامحُ وجهه بالتجاعيد من كثرة الإرهاق والتعب وألم الفراق. جلس بجسده ولكنّ روحَهُ سافرت في رحلة الذكريات.

وعاد ليتذكّر أوّلَ محطّة إقلاعٍ يومَ ولادته بلا أمٍّ يرتمي بين أحضانها، ولا إخوةٍ يلقون به فرحاً إلى السماء؛ تذكّر بستانَ أبيه، وكيف كان يلهو ويقطف الزهور وورق الأشجار، تذكّر الفرسَ البيضاءَ وحبَّ أبيه لركوب الخيل بمهارةٍ وسرعةٍ يسابقُ الريح والسحاب، تذكّر التعبَ والمعاناةَ من رحلة التنقّل من بلدٍ إلى بلدٍ حتّى يصلا إلى بيت رسول الله.

تذكّر أوّلَ مرّةٍ رأى فيها أمَّ الفضل، وتذكّرَ خفقانَ قلبه حين تسلّل الحبُّ إلى مشاعره بلا استئذانٍ، تذكّر يوم ضحكت له السماءُ، ووُلِدَ لديه الأملُ إذْ رفعَ يدَهُ إلى السماء حاملاً أوّلَ أطفاله محمّداً، أجملَ عطايا القدر.

تذكّر.. وتذكّر كلَّ أيّام سعادته مع حبيبته وأبنائه وأحفاده، تذكّر كيف بدّلَ الله حالَهُ من يأسٍ ووحدةٍ وعزلةٍ واستسلامٍ إلى سعادةٍ ورضاً وراحةِ أبدانٍ.

ولكنْ للأسف؛ لم تشأ رحلةُ الذكريات أن تستمرّ في ذكرى الحبّ والسعادة، فهبطت إلى ذكرى الألم والحزن والفراق، فتذكّر كلَّ أنواع قسوة الغدر وقسوة البشر، ليعيش أسى ذكرى رحيل أبيه وهو ما زال طفلاً لا يُدرِكُ شيئاً في الحياة، ويموت ألماً وهو يتذكّر كيف غسلَ بيده جثمانَ مَنْ كان أقربَ إليه من الجميع. تذكّر واعتصر قلبه حزناً لفراق والدة زوجته ونسيبه أيمن ومجاهد زوج ابنته.

وهنا توقّفَ قلبُهُ تماماً عندما عاد ليعيش أسوأ أيّام حياته، يوم رحيل حبيبته التي وعدَتْهُ سرّاً وجهراً أنّه سيبقى الوحيدَ حبيبَ قلبها، وأنّها ستبقى الوحيدةَ سرَّ ضحكته وفرحه وسعادته.

وبعد مرور عدّة أيّامٍ وهو في عزلةٍ تامّةٍ سافرَ أحمدُ في رحلة عملٍ إلى الصين وباكستان، ولم يكن يعلم أنّها ستكون آخرَ رحلةٍ.

وفي آخر ليلةٍ منها، وبينما هو جالسٌ على شرفة الفندق المطلّ على البحر، بدأَ قلبُه ينبض ويخفق، وبدأ يشعر بالحنين لأبيه وأمّه وابنه، وبدأت روحُه بالصراخ لعلّ صدى الجدران يوصلُ صوتَه إلى رفيقة دربه وحبيبته التي لم ينبض القلبُ شغفاً وحبّاً لغيرها.

اتّصل بكلّ أبنائه وبناته، وعندما سمع صوت عبد العزيز أصغر أبنائه، قال له: "يا ولدي؛ إنّي متّجهٌ إلى المطار لأستقلّ آخرَ رحلةٍ في عمري.. فَلْتكُنْ في استقبالي، حتّى توصلني إلى قبر حبيبتي".

لم يقوَ قلبُ أحمد على فراق أمِّ الفضل، ولم تعدْ لديه المقدرةُ على التحمّل والمكابرة على مشاعره، فأذنَ أخيراً لها بالاستعداد للرحيل.

وفي أثناء ركوب سيّارة التاكسي التي انطلقت به من الفندق لكي يصل إلى المطار، حيث كانت الطريقُ طويلةً تمرُّ بين الجبال، والأمطارُ تهطلُ بشدّةٍ، صعدَتْ روحُهُ هنا تسابق

الغيوم والسحاب، تبحث عن روح رفيقة دربه، تبحث عن روح حبّ حياته، تبحث عمّن ستطفئُ لهيبَ نيران عذابه.

في منتصف الطريق، وفي آخر أقطار الأرض، وفي غربةٍ تامّةٍ، عادَ جسدُ أحمد لوحدته وعزلته، كما عاشَ طفولتَهُ.. لكنْ، هذه المرّة بلا روحٍ.

وأخيراً تحقّقَتْ أمنيةُ محمّدٍ وزُهرةَ بأن تحتضنَ أسوارُ بقيع الغرقد في المدينة المنوّرة جثمانَ ابنهما الوحيد أحمد في عام ٢٠٠٦م.

*****

(بقلم: وائل بن عبد العزيز) بتاريخ ٢٠٢٠/٠٩/٠٨ وفي تمام الساعة السابعة مساءً.........

انتهى.

وجز الرواية

قسمًا لأجعل اسمك يرفرف فوق العلم
وأخط حروفك بأجمل قلم
أم الفضل رواية تحكي عن معاناة وألم
وتفيض منها قصص عن شاب قد أنظلم
احتلال وقهر وإبادة للدين بلا قاضي او حكم
رحيل وهجرة من أقصى الشرق إلى أمرٍ قد انحكم
حبا في قرابة سيد البشرية والبعد عن اللمم
طمعًا في شفاعته والصلاة دومًا داخل الحرم
طوعًا لخيرة القدر بكل سرور وبلا ندم
فيها من الثواب ما يرجوه القاصي وما يغتنم
فتنعم برؤية الحبيبة وتنعم بتحقيق الحلم
حتى رأى من صلبه من رفع راية الفخر بين الأمم

ولكن هيهات لم تدم الغبطة ففقد مات ابنه بسقم

ومات معه كل آماله وعاد لحالة المنهزم

ورحل فؤاده حين رحلت من أعانته على الهمم

فلم يقوى على الفراق فابتغى جنة الخلد وما فيها من نعم

*****

المقدّمة

لله تعالى الحمدُ أوّلاً وآخراً، ومن ثمّ الشكر لسيّد البشريّة حبيبنا رسول الله (ﷺ) الذي بعثَهُ لنا ربُّنا ليخرجنا من الظلمات إلى النور، وكان جلّ همّه أن نسلم لوجه الله وحدَهُ لا شريكَ له، ثمّ نؤمن به إيماناً كاملَ اليقين، فوجبَ الثناءُ والامتنانُ لرسولنا الكريم الذي وجّهَنا إلى الطريق الصحيح، وعلّمَنا أنّ الدينَ عباداتٌ ومعتقداتٌ ومن قبلها معاملاتٌ، فكانَ لنا فيه أسوةٌ حسنةٌ في أدبه وخلقه وتواضعه وصبره في الشدائد وفي تحمّل الأذيّة، وكلُّ ذلك من أجل رفع راية الإسلام، وحثّنا على تمام الرشد والتآخي وحبّ الخير للآخرين.

فمن قصّة هجرة رسول الله (ﷺ) حين خرج من مكّةَ تاركاً ذكرياتِهِ وأقاربَهُ والأرضَ التي ولد فيها ونشأ وكبر فيها، قاصداً طيبةَ الطيّبةَ لتكون نقطةَ انبعاثٍ للدين والإيمان إلى أقطار الأرض كافّةً، وكيف كان أهلُ المدينة في استقباله الحافل الذي يعرفه القاصي قبل الداني، ومن موقف أهل المدينة كذلك عندما استقبلوا إخوانهم المهاجرين، واقتسموا معهم منازلَهم

وتجارتَهم بكلّ حبٍّ وودٍّ وطيبةٍ، فكان لباقي البشر بمختلف العروق والعادات والتقاليد من الشعوب على وجه الأرض أن يحذوا حَذْوَ سيّد البشريّة، ولكن هنا فقط لحبِّ الرسول (ﷺ)... من هنا روايتي.

روايتي تحكي عن حال مئاتٍ من البشر، بل آلافٍ من المهاجرين الذين تركوا إرثَهم وشموخَهم وعِزوتَهم وأمجادَ تاريخهم وجمالَ الطبيعة الخلّابة في بلادهم، ليأتوا إلى أرضٍ قاحلةٍ شديدةِ الحرارة ومحدودةِ الموارد حينذاك، ليكونوا جيرانَ رسول الله (ﷺ)، وطمعاً في أن يكونوا من أوائل الذين يحصلون على شفاعته يوم القيامة.

ومن هؤلاء المهاجرين محمّدٌ الشابُّ الذي بعد أن خسرَ في الحرب أباه، وأعمامَه، ومعظمَ أفراد قبيلته، والأهمَّ منهم أبناءَه الاثني عشرَ فداءً لرفع راية الإسلام والحفاظ على أرض وطنهم من العدوّ الغاشم، وفقدَ أخيراً حبيبةَ قلبه ورفيقةَ دربه التي كان حلمها وحلمه أن يهاجرا إلى المدينة المنوّرة فقط حبّاً برسول الله (ﷺ)، وطمعاً في الحصول على فضائل جيرته المباركة.

*****

وجبَ عليّ شكرهم

سعادة الدكتور (فؤاد البردي) لِما قدّمه لي من نصائح تنير لي دربي.

سعادة الدكتور (محمّد هداية الله قاري) لكلّ حرفٍ علّمه لي فأصلح لي طريقي.

سعادة الدكتور (محمود ثابت يماني) رحمه الله، الذي أشرف على رسالة الماجستير، وكان نِعْمَ الأستاذ والأخ الكبير والصديق والملهم.

سعادة اللّواء الدكتور (عبد الكريم ضيف الله الحربي) لِما قدّمه لي من نصائح ودعم.

سعادة الجنديّ المجهول، صاحب السموّ الرفيع والخلق البديع، رجل المواقف.

سعادة المستشار الفنيّ (مازن أبو عبد الله) لمشاركته لي وقته الثمين وتقديم النصح للارتقاء إلى الأفضل.

سعادة المصمّمة (نبيلة باحيمد) لمجهودها المتفاني في تصميم الغلاف لإخراج الرواية بأفضل صورة.

لجميع أصدقائي لاهتمامهم الدؤوب فيما أكتب، ولدفعي إلى الأمام بلا توقّف، وأخصّ منهم:

الأستاذ إياد علي التهامي، الأستاذ طارق طلعت أبو الفرج، المقدّم صالح عطية الله الجهني، الأستاذ منصور سعود الحميد، الأستاذ عاطف نجيب المطوع، الأستاذ عطية عبدالله الجهني، الأستاذ عامر عثمان ثابت.

*****

عناوين التواصل

w.b2030

wailbardi

wail_bin_abdulaziz

wail_bin_abdulaziz@yahoo.com

wail abdulaziz

إصدارات سابقة

نقطة تحول سرمدية



المحتَويَاتْ